نظرية الصفر اللغوي: مرتكزاتها وتطبيقاتها ومقارنتها بالنظرية العاملية

ثائر أحمد سلامة

تعدّ **نظرية الصفر اللغوي** للدكتورة سناء حميد البياتي خطوةً ثورية في فهم اللغة العربية وتحليل النص القرآني. تنطلق هذه النظرية من فرضية أساسية مفادها أن هناك مرحلة ذهنية "**صفرية** "بين انبثاق الأفكار في الذهن وصياغتها في جمل لغوية. في هذه المرحلة البينية - التي تقع في دماغ الإنسان - تتشكل البُنى الأولية للمعاني قبل أن تكتسب صياغتها بالألفاظ والتراكيب. وقد استلهمت البياتي نظريتها من التراث اللغوي العربي ومن منجزات علم اللغة الحديث (اللسانيات) معًا، فسعت إلى إعادة قراءة تراث النحو والبلاغة برؤية جديدة تتجاوز التركيز التقليدي على علامات الإعراب إلى التركيز على **المعنى والنظم** (التركيب الكلّي للجملة وسياقها). في هذا الفصل، سنعرض بشيء من التفصيل مكونات هذه النظرية وأعمدتها الفكرية واللغوية، ونقارِن منهجيًا بينها وبين **نظرية العامل** النحوية القديمة من حيث الأساس والوظيفة والغاية. ثم نتناول **بعض تطبيقات نظرية الصفر** في فهم بنية النص القرآني واكتشاف أسراره، متتبعين كيف تكشف هذه النظرية عن جوانب من إعجاز القرآن اللغوي والنحوي. بعد ذلك، نستحضر رؤية الأديب **سيد قطب** البلاغية - لاسيما نظريته عن *"الصورة الفنية"* في القرآن الكريم - ونبيّن أوجه التقاطع بينها وبين إمكانات نظرية الصفر في فهم التصوير القرآني. كما سنستعرض بإيجاز أهم **المدارس البلاغية** في التراث الإسلامي (كالمدرسة الجاحظية، ومدرسة عبد القاهر الجرجاني، ومدرسة الزمخشري، وبعض الاتجاهات المعاصرة) ومساهمتها في خدمة بيان إعجاز القرآن، وصولًا إلى ربط الخيوط كلها ضمن سياق أوسع يتعلق بـ"**نظرية المعرفة ومناهج التفكير**"؛ حيث اللغة وعاءٌ للفكر، والمنهج اللغوي والبلاغي السليم أداةٌ لتكوين المعرفة وصقل التفكير في الحضارة الإسلامية.

مكونات نظرية الصفر اللغوي: الأسس الفكرية واللغوية

نظرية الصفر اللغوي تقوم على مجموعة من المرتكزات المتداخلة من علوم اللغة والتراث العربي والعلوم الإدراكية الحديثة. يمكن تلخيص أبرز مكوناتها الفكرية واللغوية كما يلي:

- **مرحلة الصفر (البنية الذهنية):** تمثل هذه المرحلة لبّ النظرية واساس تسميتها. تشير البياتي إلى أن "*مرحلة الصفر*" هي اللحظة الذهنية الواقعة بين تولّد الفكرة في العقل وبين التعبير عنها بجملة. أي إنها المرحلة التي **تتكوّن فيها المعاني في الذهن** قبل أن تصاغ في كلمات. استخدمت البياتي مفهوم *الصفر* كاستعارة من علم الرياضيات، حيث يقع الصفر بين الأعداد الموجبة والسالبة ويشكّل نقطة بدء واتجاه لأي من الجانبين. وبالمثل، فصفر اللغة هو نقطة بدء تشكيل الجملة: منه تنطلق عملية العدّ اللغوي نحو تشكيل تراكيب لا نهائية المعاني من خلال كلمات محدودة. تؤكد البياتي أن الصفر هنا لا يعني "العدم" بل هو *بداية الانطلاق*؛ كما نقول "**ساعة الصفر**" لبدء حدث مهم. ففي الدماغ

البشــري، عندما نهمّ بصــياغة فكرة ما، يمر عقلنا بهذه اللحظة التأســيســية التي تتبلور فيها الفكرة العامة قبل تفصيلها في كلمات وجمل.

- **النظام اللغوي الفطري (اللسانيات الإدراكية):** تفترض نظرية الصفر وجود **نظام مشترك في دماغ الإنسان** لإنتاج اللغة، يشترك فيه جميع البشر باختلاف لغاتهم. وهذا يقارب ما يعرف بنحو عالمي (أو قواعد فطرية) تنظم عملية اكتســاب اللغة. وتشــرح البياتي ذلك بقولها إن الطفل يُولد مزوّدًا بآلية ذهنية لغوية عامة، ومن خلال البيئة يكتسب الخصوصيات النحوية للغة قومه. (وهذا يتقاطع مع ما سـنورده في فصـول لاحقة مما اصـطلح عليه ب"قوانين التفكير")، فعلى سـبيل المثال، يشـترك جميع البشــر في فهم علاقة *الموصــوف والصــفة* (كعلاقة معنى) لكن تختلف كل لغة في ترتيب اللفظ؛ فالعربية تقدّم الموصــوف ثم الصــفة ("البنت الجميلة")، والإنجليزية تقدم الصــفة قبل الموصــوف ("the beautiful girl").إلا إن **العلاقة الذهنية** واحدة في جميع اللغات. من هنا تقول البياتي: "*اللغة ليست عشـوائية* بل هي ذات نظام ثابت في العقل، ومن ثمّ فالنحو علم قائم على نظريات تكشـف هذا النظام". وقد اســتعانت البياتي في بُعد **اللســانيات الإدراكية** بمفهوم من علم النفس الإدراكي هو *نظرية الجِشْــتَالت* (Gestalt)، والتي تقول إن الإنســان يدرك الأشــياء ككل متكامل قبل إدراك التفاصـيل. وهذا بالضـبط ما تفعله نظرية الصـفر: إدراك **الجملة كوحدة كاملة** دالة، ثم النزول إلى عناصرها .فهي تراعي *الكلي ثم الجزئي*، تمامًا كما ندرك مشهدًا بصريًا لأول وهلة بصورة إجمالية (رجل أو امرأة قادم من بعيد) ثم ننتبه إلى الملامح والتفاصيل لاحقًا.

من الجدير بالذكر هنا أننا فصــلنا نحو ذلك في كتابنا: "ضــوابط التعامل مع مســائل الصــفات" (صدرت طبعته الأولى في سنة 2013)، على النحو التالي:

إنَّ النظر في نصــوص الصــفات يجب أن يكون من خلال فهم الســياق الكلي للآية أو الحديث، لا من خلال اجتزاء المفردات وتحليلها منعزلة عن التركيب العام. فالعرب - كما يذكر الكتاب في عدة مواضع - لم تكن تتعامل مع الجمل بالتفكيك المعجمي بل كانت تدرك المعنى الإجمالي من خلال الســياق والمقام، وهذا هو عين ما تقرره البياتي في نظريتها اللغوية. وعليه، فإن المنهج الســليم في التعامل مع صـفات الله تعالى يتطلب النظر إلى الجملة أو السـياق الذي وردت فيه الصـفة باعتباره وحدة دلالية متكاملة، فمثلاً عند قراءة قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْــتَوَى﴾ لا يصــحّ أن يُفصــل لفظ "اسـتوى" عن اسـم "الرحمن" أو عن باقي الجملة، لأن ذلك يُحدث فصـامًا معرفيًا يُنتج فهما قاصـرا أو مغلوطا، ومثال ذلك فهم الآية الكريمة: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُــوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَــاء﴾ فتأويلها بالكناية عن الجود والكرم **تأويل صحيح محمود**، وهو مبحث يختلف عن مبحث: هل تعتقد بأن لله تعالى يد؟ وأنها قابلة للانبســاط والانقباض على المعاني اللغوية؟ تعالى الله عما يقوله المشـبهون علوا كبيرا، في المقابل رأينا المدرسـة "السـلفية" تسـلط سـيف

التعطيل في وجه من يتأول صــفة من الصــفات ولو كان تأويله منســجما مع الســياق اللغوي للآية انســجاما تاما، أو في وجه من لم يتعامل مع الصــفات على "ظواهرها" وفق "منهجهم في التفكير"، فيشترطون عدم التأويل، وعدم التعطيل!

والملاحظ المدقق في كلامهم في المقولة الدارجة على ألسـنتهم حين إثبات "صـفات الله" التي اقتنصـوها من خلال اجتزاء المفردات وتحليلها منعزلة عن التركيب العام للآيات، مقولتهم: "من غير تأويل ولا تعطيل ولا تشبيه"، يتوصل إلى أنهم إنما يريدون بقولهم بعدم التأويل وعدم التعطيل أن يكون مقدمة للهجوم على من يريد الأخذ بالمجاز في القرآن لتأويل ما يتوهم من ظاهر لفظه الجوارح، فكأن الســلفيين يريدون القول بأن من يريد تأويل يد الله بأنها القدرة أو غيرها من المعاني فهو مؤول وهذا يفضي إلى التعطيل، وبالتالي هذا منهج غير إسلامي وأصحابه هم المعطلة، برأيهم.

ولكن المدقق يرى فيه تحريفا للموضـوع باتجاه تصـويب الأسـلحة على التأويل والتعطيل وتناسـي ما يفضي إليه من التجسيم والتشبيه، وكلامهم هذا إذا أخذ على ظاهر اللغة وحقيقة الألفاظ في اللغة فهو يعني بعبارة أخرى عدم اعتبار الجوارح صــفات، بل يجب اعتبارها جوارح من غير تأويل ولا تعطيل. ولما كان منهجهم الحرفي النصوصي الظاهري هذا يفضي حتما إلى التشبيه والتجسيم حسب اللغة العربية استدركوا بالقول من غير تشبيه ولا تجسيم وبقولهم: على نحو يليق بذات الله.

هذا الكلام المعبر عن منهجيتهم "السلفية الظاهرية" في فهم الصفات المتشابهة فعلا محير ومربك لهم ولغير المدقق، ويظهر فيه التناقض جليا وواضحا سواء مع اللغة أو العقل أو مع المحكم من نصوص الشريعة.

فمن لا يدقق في كلامهم يظهر له أن كلامهم ســليم ويتوافق مع الشــرع ولكنه يبقى متحيرا من طريقة صياغة الكلام ولا يستطيع رؤية أين الخلل فيه.

ولو انعمنا النظر في كلامهم وشــطبنا كلمة صــفة وصــفات من كلامهم فســيظهر الأمر على حقيقته كالتالي: أن الجوارح التي نســبها الله لنفســه ليســت صــفات وأنها جوارح على الحقيقة كما في ظاهر النصـوص، وهذا الفهم فهموه من خلال شـروط معينة وضـعوها وهي أنه لا يجوز تأويل معناها (نفي المجاز) ولا يجوز تعطيلها، ولكن هذه الجوارح -في نفس الوقت- لا تشــبه جوارح المخلوقات وكيفيتها وهي جوارح على نحو يليق بذات الله.

فترى أن هناك تلاعبا في الألفاظ والمصـطلحات وتلبيسـا على الناس في هذه القضـية من قبل المدرسـة الســلفية، فلا يجب إدخال بحثهم هذا تحت مســمى الصــفات، لأن نفي المجاز يعني حمل اللفظ على حقيقته اللغوية. لذلك فالأدق في منهجهم هو عدم اعتبار الجوارح صــفات بل يجب تقســيم البحث إلى الايمان باسماء الله وبصفات الله وبجوارح الله (تعالى الله سبحانه عن ذلك).

لكن الحقيقة أن بحث التفسير وفهم التراكيب اللغوية المستعملة في الآيات، كتركيب ﴿يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾، يندرج تحت طريقة العرب في التعبير، فمثلا العرب إذ تعبر عن الجود تستعمل تراكيب قد تتقارب أو تتباعد علاقتها باللفظ الأصلي، فالتعبير عن (جود حاتم) -مثلاً- يمكن أن يكون بهذه الألفاظ: جواد، كثير الرماد، مهزول الفصيل، مبسوط اليد، جبان الكلب، بحر لا ينضب، سحاب ممطر، وغيرها من التراكيب المختلفة في وضوح أو خفاء دلالتها على معنى الجود.. ففرق بين أن تفهم التركيب وتفسره وتحمله على أحد المعاني المستعملة في العربية للتعبير عن الجود، **وبين أن تجزأه لأجزاء الجملة**، فتقول: يداه: يعني يدان، ومبسوطتان هيئة، وما إلى ذلك، فإن العرب حين كنَّت عن جود حاتم بأنه سحاب ممطر لم تكن تعني أن حاتما غيمة، ولا أن المطر ينهل منه!!.

إن التعامل مع النص الكلي كوحدة واحدة هو الذي يمنع التأويل الفاسد أو التشبيه، وهو الذي يحفظ الاتزان العقدي في فهم الصفات. ومن هنا يظهر التوازي المنهجي بين نظرية الصفر التي تراعي الإدراك الكلي أولًا، والمنهج الذي قررناه أن "القول في بعض الصفات كالقول في البعض الآخر" أي إن المعنى يُبنى من السياق الكلي للنص، لا من تفكيكه إلى وحدات مجزأة. وهذا المنهج لا يكتفي بفهم الكلمة أو العبارة في ذاتها، بل يُعيدها إلى بنيتها المقامية والمعنوية داخل الجملة والسياق العام، فيعصم من الزلل.

بالعودة إلى شرح نظرية الصفر للبياتي نقول:

- **مراحل إنتاج الجملة في الدماغ:** وفق نظرية الصفر، تمر الفكرة في الدماغ بثلاث **مراحل متسلسلة** قبل أن تصبح جملة مفيدة:

1. **تحديد المعنى العام للفكرة:** يحدّد العقل أولًا طبيعة الفكرة المراد التعبير عنها. هل هي *سؤال*؟ إذًا يتحدد نوع أداة الاستفهام الملائمة، وهل هي *نفي*؟ فيقرر العقل استخدام أداة نفي، أم فكرة *شرطية*؟ فيستدعي أداة الشرط... وهكذا. هذه المرحلة هي تحديد **الخصائص الكلية** (كالجملة خبرية أو إنشائية، مثبتة أو منفية، إلخ).
2. **ربط المفاهيم والعلاقات النحوية (مرحلة الإسناد):** بعد تحديد الإطار العام للمعنى، ينتقل الدماغ إلى **ربط أجزاء الفكرة ببعضها** في علاقات منطقية. فلو كانت الفكرة تصف **موصوفًا بصفة** - مثل" *زيد ذكي*" - فإن العقل قبل انتقاء الكلمات يربط مفهوم *الذكاء* بصورة *زيد* في علاقة حُكم أو إسناد. أي يسنِد صفة الذكاء إلى زيد في ذهنه قبل النطق. كذلك أي علاقة نحوية (كالفعل والفاعل، أو المبتدأ والخبر) تنشأ أولًا على مستوى المعنى العقلي قبل أن تُكسى بألفاظ. تسمي البياتي هذه المرحلة "*مديرية الربط*" بين مدلولات أجزاء الفكرة.
3. **اختيار الألفاظ من المعجم الذهني:** بعد اكتمال ربط المعاني ذهنيًا، يصدر العقل إيعازًا إلى "*المعجم الذهني*" ليستخرج الكلمات المناسبة التي تعبّر عن تلك المعاني المربوطة. فينتقي اسم

الشخص (مثال: زيد)، والصفة الملائمة (ذكي) من مخزون المفردات في الذاكرة. وهنا تتشكل أخيرًا الجملة اللفظية الظاهرة. إذًا، الكلمات تأتي في المرحلة الأخيرة بعد أن يكون المعنى العام والعلاقات قد تحددت مسبقًا على مستوى الذهن.

- **نظرية النظم لعبد القاهر الجرجاني:** تستند البياتي في تأصيل نظريتها بقوة إلى تراث **البلاغة العربية**، وخاصة نظرية *النَّظْم* عند الإمام عبد القاهر الجرجاني (ت. 471هـ). تصرّح البياتي بأن *نظرية الصفر اللغوي تنطلق من نظرية النظم لعبد القاهر الجرجاني*. ومعنى النظم عند الجرجاني هو **تعليق الكلمات على بعضها وفق علاقات المعنى** لا مجرد ترتيب لفظي .habous.gov.ma فقد قرر الجرجاني في مقدمة *دلائل الإعجاز* أن *بلاغة القرآن وإعجازه مردّه إلى حسن النظم* mawdoo3.com، mawdoo3.com، أي إتقان نسج المعاني بالكلمات ضمن السياق بحيث تتلاقى الألفاظ والمعاني بانسجام تام .mawdoo3.com ويُروى عنه قوله: "*النظم... هو أمُّ إعجاز القرآن، والقانون الذي وقع عليه التحدي*" .alukah.net وقد استفادت البياتي من هذه الفكرة الجوهرية لتجعل **العلاقات المعنوية والسياقية هي المحور** في التحليل النحوي، بدلاً من التركيز على شكل الكلمة وإعرابها فحسب. ومما يجدر ذكره أنها درَست التراث النحوي والبلاغي العراقي دراسة معمّقة خلال مرحلتي الماجستير والدكتوراه، مما أكسبها تراكمًا معرفيًا تراثيًا واسعًا. فهي تصرّح أنها قرأت كتب التراث كاملةً تقريبًا أثناء دراستها في العراق، فاستخرجت منها "*اللمحات المضيئة*" وأعادت تقديمها برؤية حديثة. ومن تلك اللمحات ما ورد لدى الرماني (ت. 386هـ) في كتابه *النكت في إعجاز القرآن* من تشبيه اللغة بالأعداد: إذ لاحظ **محدودية الألفاظ وملايين التراكيب الممكنة منها**، فقال إن الكلمات إذا تركّبت تولّدت منها معان لا نهاية لها، "*كما العدد*". وقد أشادت البياتي بهذا القول واعتبرته سبقًا للغربيين بقرون – فالرماني بهذا التلميح أدرك فكرة **الطاقة التوليدية** للغة (أي إمكانية إنتاج عدد غير متناه من الجمل بواسطة عدد محدود من الكلمات وقواعد التركيب). وهكذا يظهر أن البياتي تقف على أرضية تراثية متينة تبدأ من الجرجاني وتمرّ بلمحات علماء كالرماني وغيرهما، لكنها لا تكتفي بذلك.
- **روح علمي رياضي:** من السمات الفكرية الجديرة بالذكر في منهج البياتي تأثرها بالحسّ **الرياضي والمنطقي** في دراسة النحو. فقد صرّحت أنها عشقت الرياضيات منذ صغرها وتفوّقت فيها، ثم وجدت في النحو ضالتها لأنه أقرب علوم اللغة إلى الفكر الرياضي المنظّم. فالنحو عندها ليس مجرد قواعد عشوائية، بل هو **علم له ثوابت** وبدهيات كالعلوم الدقيقة. وهذا ما جعلها تميل إلى بناء نظرية شاملة تفسّر النظام اللغوي "*في العمق*" (أي في دماغ الإنسان) بدل الاكتفاء بالسطح الظاهر. فهي تبحث عن *المنطق الخفي* الذي يحكم تراكيب اللغة العربية، تمامًا كما يبحث الرياضي عن البرهان المنطقي وراء المسألة. هذا التوجه العلمي الدقيق يفسّر كثيرًا من حرصها على منهجة عملية إنتاج

الجمل ذهنيًا كما مرّ أعلاه، وربطها بمنهج علمي كالجشتالت وعلم اللغة الإدراكي الحديث. وبهذا المزج بين أصالة التراث ونظريات اللسانيات الحديثة، تشكّلت معالم نظرية الصفر في اللغة.

باختصار، ترتكز نظرية الصفر اللغوي على **جذور تراثية عميقة** (نظرية النظم، ثراء اللغة وطاقتها، علوم البلاغة العربية) وعلى **دراسات لغوية حديثة** (اللسانيات الإدراكية، النظرية التوليدية الضمنية، علم النفس المعرفي). وهي تنظر إلى اللغة كبناء كلي متكامل، يبدأ **بفكرة كاملة** في العقل ثم يتنزّل في كلمات ضمن نسق يكشف معناه. هذه الرؤية الشمولية تمثل انتقالًا من التركيز على الجزئيات الإعرابية إلى التركيز على **الكل التركيبي والمعنوي**، كما سيتضح أكثر عند مقارنتها بالنحو التقليدي.

علم القواعد بوصفه علمًا معرفيًا إدراكيًا:

حين ندرس علم القواعد في أي لغة طبيعية، ندرك أنه ليس علمًا شكليًا صرفًا، بل هو علم يتأسس على إدراك النظام العقلي والإدراكي للغة في ذهن المتكلم والسامع على السواء. القواعد اللغوية لا تُخترع عبثًا، وإنما هي محاولات لضبط القوانين التي يعمل بها الدماغ البشري حين يُنتج الكلام أو يفهمه. فالمتكلم لا يستحضر القواعد عند التحدث، ولكنه يُفعّلها ضمنًا بحسب بنيته العقلية واللسانية المتشكلة. ولهذا فإن النحو العربي، رغم انشغاله بكثير من التفصيلات التقنية في الإعراب والبناء، يحمل في طياته نظرة إدراكية دقيقة للتركيب اللغوي، تكشف عن عمق وعي العرب الأوائل باللغة باعتبارها نظامًا حيًا متكاملًا من المعاني والمباني.

من هذا المنطلق، فإن نظرية الصفر اللغوي كما قدمتها الدكتورة سناء البياتي تمثل ثورة منهجية في إعادة توجيه علم النحو ليصبح أكثر قربًا من طبيعة التفكير الإنساني. فهي تؤكد أن اللغة لا تُفهم عبر تفكيك الجمل إلى وحدات معزولة، وإنما عبر إدراك السياق الكلي أولًا، ثم الانتقال إلى العناصر الجزئية. وهذا الطرح يعيد النحو إلى وظيفته الجوهرية: أن يكون خادمًا للفهم والمعنى لا مجرد أداة لمنع اللحن. فالفهم الكلي للجملة والسياق هو السبيل لفهم مقاصد الخطاب، ومن ثم فإن وظيفة القواعد لا تنحصر في بيان محل الكلمة فقط، بل في بيان وظيفتها ضمن البنية الكلية.

وهذا التوجه يتناغم مع ما ورد في كتابنا هذا: نظرية المعرفة ومناهج التفكير والاستدلال، إذ يشير إلى أن اللغة تمثل وعاء الفكر، وأن القوالب اللغوية تُترجم العمليات العقلية كالإدراك، والتصنيف، والحكم، والتجريد، والربط السببي (وهي أطر لم تتناولها كلها نظرية الصفر). ومن ثم، فإن أي تصور للقواعد ينبغي أن يُؤسس على هذه العمليات لا على مجرد التعريفات الشكلية. تطوير النحو في ضوء نظرية الصفر لا يُعد قطيعة معرفية مع الماضي، بل هو عودة إلى الجذر الوظيفي للنحو العربي بوصفه أداة لفهم دلالات الكلام لا شكله فقط، وهو إعادة صياغة للوظيفة العقلية للغة في ضوء المعنى لا في ضوء البنية فقط.

نظرية الصفر في مقابل نظرية العامل النحوي

مثّلت **نظرية العامل** العمود الفقري للنحو العربي القديم منذ أيام الخليل وسيبويه. تقوم هذه النظرية على أن الكلمات في الجملة *"تعمل"* في بعضها البعض فتؤثّر في إعرابها؛ أي إن هناك **عوامل** تسبّب رفع أو نصب أو جرّ كلمة أخرى، و*معمولات* تتأثر بذلك، و**أثرًا** إعرابيًا يظهر على آخر الكلمة. فمثلًا في جملة "لم يكتبْ": الحرف لم هو **العامل (المؤثّر)**، والفعل يكتب **معمول (متأثّر)** به، و**الأثر** ظهور السكون (الجزم) على آخر الفعل. وقد وضع النحاة لهذه العوامل تصنيفات شتى (معنوية مثل الابتداء، ولفظية مثل الأفعال والحروف) لضبط أحكام الإعراب. كان الهدف الأساس لابتكار مفهوم العامل هو **تفسير ظواهر الإعراب وضبط اللسان العربي**، خصوصًا بعد اختلاط العرب بغيرهم ودخول اللحن إلى الكلامalukah.net، .alukah.net أي إن النحو نشأ تاريخيًا بدافع *حماية لغة القرآن والحديث* من الخطأ، فوضع النحاة قواعد صارمة تصبح معيارًا للحكم على صحة التراكيب .alukah.net في ضوء ذلك، ركّزت نظرية العامل - عبر قرون - على **علامات الإعراب** بوصفها دليلًا على العلاقات النحوية: فرفعت الفاعل ونصبت المفعول على اعتبار أن الفاعل مثلاً يعمل فيه عامله (الفعل أو ما نزل منزلته) فيرفعه، والمفعول يعمل فيه عامله (الفعل) فينصبه... وهكذا.

غير أن البياتي ترى أن هذه المقاربة التقليدية أفرطت في التركيز على **الشكل الإعرابي الخارجي** وأغفلت *الدلالة الكامنة* للجملة. وقد صرّحت بجرأة أن **النحو العربي خلا من أي نظرية لسانية بعد نظرية العامل**، إلى أن جاءت نظريتها هي اليوم .وترى أن نظرية العامل منذ سيبويه ركّزت على "**المرفوع والمنصوب والمجرور**" بشكل آلي دون أن تسهم فعليًا في فهم النص القرآني فهمًا جديدًا. تقول البياتي: "*عند قراءة النص القرآني نحويًا، لم يكن لدينا سوى المرفوع والمنصوب والمجرور... لم تقدّم [نظرية العامل] شيئًا* .فهي مجرد وصف لحالة إعرابية دون تفسير دلالي عميق". وتضيف "إن **علماء البلاغة** هم الذين قدّموا فهمًا أعمق (خصوصًا في علم المعاني)، لأنهم نظروا إلى المعنى والسياق." من هنا جاءت دعوتها إلى نقل محور التحليل النحوي من العلامة الإعرابية إلى المعنى والسياق.

يمكن تلخيص **الفروق المنهجية** والوظيفية بين النظريتين في جدول مقارن موجز:

الجانب	**نظرية الصفر اللغوي (البياتي)**	**نظرية العامل النحوي (التقليدية)**
النشأة والغاية	نشأت لفهم **بنية التفكير اللغوي** والكشف عن أسرار **إعجاز المعنى** في النص؛ هدفها تجاوز التصحيح الشكلي إلى **استنباط الدلالات** العميقة.	نشأت لضبط **صحة الكلام** وتجنب اللحن بعد انتشار العجمة؛ هدفها تقعيد اللغة بمعايير ثابتة للحفاظ على سلامتها.

الجانب	نظرية الصفر اللغوي (البياتي)	نظرية العامل النحوي (التقليدية)
محور التركيز	التركيز على **المعنى والنظم:** البداية من الفكرة والسياق الكلّي؛ العلامة الإعرابية **تأتي تالية** في خدمة المعنى.	التركيز على **العوامل والإعراب:** العامل يرفع هذه الكلمة أو ينصب تلك... العلامة الإعرابية في الصدارة كدليل العلاقة.
الوحدة الأساسية	**الجملة الكاملة والسياق:** النظر يكون إلى الجملة كوحدة متكاملة أولًا، ثم إلى وظائف الأجزاء ضمن هذا الكل؛ لا تفكيك إلا لفهم الدور الدلالي لكل جزء.	**الكلمة المفردة** وعلاقتها بما قبلها أو بعدها (فاعل لفعل، مفعول لفعل... إلخ). غالبًا يُجزَّأ التركيب لإعراب كل مفردة على حدة.
التعامل مع الظواهر	يرفض التكلف والتقدير بلا دليل نصي، بل **النص نفسه يكشف القاعدة**. فلا داعي لافتراض محذوفات ما دام المعنى والسياق يفسّران التركيب (مثال ذلك رفضها اعتبار *إذا* في ﴿*إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ*﴾ بحاجة لتقدير فعل محذوف.	يعتمد أحيانًا على **تقديرات وتخريجات افتراضية** للحفاظ على انسجام الإعراب مع القواعد؛ مثل افتراض عامل محذوف في بعض التراكيب القرآنية لتفسير إعرابها.
دور المعنى	محوري وأساسي؛ **النحو ذاته ينبغي أن يكون خادمًا للمعنى** لا منفصلاً عنه. كل حكم نحوي يجب تبريره بدلالة سياقية (مثل تبرير رفع الفعل أو نصبه بسبب معنوي لا مجرد تقليد).	ثانوي أو ضمني؛ *التفسير الدلالي موكول لعلم المعاني والبلاغة* خارج علم النحو. الهدف الأساسي للنحو عند القدماء وصف الموقع الإعرابي وضبطه.
النظرة إلى الإعراب	علامة الإعراب **وسيلة** لا غاية؛ فهي *تقف خلف المعنى* وتتبعه. تستخدم لتمييز الفروق المعنوية فقط، وليست هي التي تحدّد المعنى من تلقائها.	علامة الإعراب هي القائد والمسيطر في التحليل؛ تبدأ بها عملية الإعراب وتنتهي عندها، وهي غاية بذاتها لضبط اللسان.
المخرجات والمعارف	تؤدي إلى منهج تحليلي يربط اللغة بالحياة والمعنى، مما يُضفي حيوية على درس النحو. وهي - بشهادة مطبّقيها - كفيلة باكتشاف	أدت إلى منهج تعليمي تقليدي ركّز على الإعراب والتفريع حتى غدا النحو في نظر كثيرين علمًا جافًا معقّدًا؛ بحيث *مَلّ الطلاب من دروس القواعد* وانصرفوا عنها. كما إن هذه الآلية القديمة عجزت

الجانب	نظرية الصفر اللغوي (البياتي)	نظرية العامل النحوي (التقليدية)
	معارف جديدة ومتنوعة من النص القرآني لم تكن الآليات السابقة قادرة على استنباطها.	عن كشف كثير من المعارف المضمّنة في النص القرآني.

وكما يتبين من الجدول، فإن **نظرية الصفر** تُحدِث نقلة نوعية في *وظيفة النحو*. فبعد أن كان غاية النحو الأولى تجنب الخطأ اللغوي، أي تجنب اللحن، أصبح الغاية الأسمى *فهم النص* وخدمة علم المعاني والبلاغة. تؤكد البياتي أننا *لا نلغي علامات الإعراب* في نظريتها، **ولكن نضعها خلف المعنى**. أي تبقى الأدوات الإعرابية موجودة، لكن دورها مساعِد، إذ نبحث عن سبب دلالي لكل حركة إعرابية. وتضرب مثالًا على ذلك بالفعل المضارع: فقد اصطلح النحاة على تسميته "مضارعًا" لكونه يشابه الأسماء في حركاته (يأتي مرفوعًا ومنصوبًا ومجزومًا)، وهذا لا يضيف معنى جديدًا للفعل نفسه. تقترح هي أن يستبدل هذا بمنهج ينظر إلى **السياق** لتحديد وظيفة الفعل وزمنه بدل الاكتفاء بتصنيفه شكليًا. ففي تحليلها، لا يُعزل الفعل عن جمله، بل يُسمّى بصيغته (مثل "*صيغة فَعَلَ*") ثم يُنظر فيما **أفادته هذه الصيغة من دلالة ضمن السياق**.

ومن **الأمثلة التوضيحية** التي تذكرها البياتي لتبيان قصور التحليل العاملّي مقابل تحليل نظرية الصفر: جملة ﴿*إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ*﴾، يقول النحاة التقليديون في إعرابها: السَّماءُ فاعلٌ لفعلٍ محذوف تقديره "*انفطرت السماءُ*" يفسّره الفعل المذكور. أي إنهم افترضوا جملتين مكررتين توصلًا لضبط الإعراب (وهذا نابع من وجوب وجود عامل لرفع المبتدأ بعد *إذا*. تنتقد البياتي هذا **التقدير التعسّفي -برأيها-**، متسائلة: *كيف نُدخل كلمات تقديرية على نصّ قرآني معجز؟!* وترى أن الأولى أن **نفهم النص كما هو**، فهو نفسه يدلّنا على القاعدة دون حاجة لحشو تقديرات. وبالفعل، تقدم نظرية الصفر تفسيرًا بسيطًا "*إذا*" حرف شرط، "*السماء*" فاعل لفعل ظاهر (لا حاجة لمحذوف)، والتقدير الذهني الصحيح: عند **انفطار السماء** يحصل كذا وكذا. والمعنى واضح من السياق القرآني دون افتراض فعل قائم بذاته قبل الشرط. كذلك تعترض البياتي على مسألة *الحروف الزائدة* في التحليل التقليدي - كقول بعضهم عن *لا* النافية للجنس في "*لا رَيبَ*" إنها زائدة، أو عن الباء في ﴿*لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ*﴾ إنها صلة زائدة – فتقول: "*لا يوجد حرف زائد، لو كان زائدًا لاستغنت عنه اللغة*". فكل حرف عندها يؤدي دورًا في **نسيج المعنى** مهما بدا لنا ظاهريًا أنه زائد.

ومن المهم الإشارة إلى نظرة البياتي لتاريخ النحو؛ فهي **لا تنتقص من جهود الأوائل**، بل ترى أنهم *مشكورون على ما قدّموا*، إذ كانت معارف عصرهم محدودة بما تيسّر لهم. لكن **المعرفة تراكمية** - كما تقول - لذا ينبغي أن نبني على ما وصلوا إليه لنقفز قفزات نوعية. هي نفسها استفادت من سيبويه والجرجاني، لتخرج برؤية أكثر شمولًا، وإذ تؤكد أن **الساحة العربية افتقدت نظريات نحوية جديدة** بعد نظرية العامل، فإنها تعتبر نظريتها محاولة جريئة لملء هذا الفراغ، بالاستفادة من تراكم العلم الحديث أيضًا. وقد واجهت أفكارها بعض المقاومة من *الحرس القديم* في مجامع اللغة والمؤسسات التقليدية التي "تمسكت بما وجدنا عليه

آباءنا". لكنها تجد الآن، بعد نضوج فكرتها، من بدأ يتفاعل معها ويقدّر قيمتها .وبالنسبة لها المعيار بسيط: *إذا ثبتت صحة الفكرة وجدوا فيها شيئًا صحيحًا، فلماذا لا تُفَعَّل؟*. إن تجديد النحو بمنهج الصفر لا يعني هدم القديم كليًا، بل يعني **تطوير الآلية** بحيث تستوعب النصوص فهمًا وتفسيرًا، لا أن تكتفي بالحكم عليها صحةً وخطأً. وبهذا المعنى، يكون **منهج نظرية الصفر أرحب وأغنى:** فهو يشمل قواعد النحو التقليدية ولكن يُخضِعها لخدمة المعنى، عوض أن تكون هي سيدة الموقف. ومن ثمّ فإن هذه النظرية - كما سنرى في القسم التالي - قادرة على إظهار جوانب من **إعجاز القرآن النحوي والبلاغي** لم تكن نظرية العامل تلتفت إليها.

الإبداع النحوي العربي و أبعاده الإدراكية والعالمية

لا بد من إنصاف جهود علماء اللغة الجهابذة، حتى لا يظن ظان أنهم اقتصروا فقط على نظرية العامل، وفزعوا فقط من اللحن فابتكروا قواعد النحو التي "لم تعد صالحة"، لا نريد لأحد أن يخرج بهذا الفهم بعد قراءة هذا الفصل من الكتاب، إذ إن ما قام به النحاة العرب الأوائل من تأصيل علم النحو يُعد من **أعظم الإنجازات العقلية في تاريخ الحضارة الإسلامية والإنسانية**. فقد واجهوا واقعًا لغويًا شديد التنوع، متعدد اللهجات ومتغير السياق، ثم استطاعوا عبر جهود تحليلية مذهلة أن يضعوا قواعد دقيقة تحكم نظم الكلام العربي، دون أن يملكوا عتادًا علميًا مثل علم النفس الإدراكي أو اللسانيات الحديثة. لقد اكتشفوا بالبديهة العقلية والإدراك الحسي نمط التفكير الكامن وراء الجملة، ونسّقوا العلاقة بين المعنى والتركيب بنظرة تحليلية واستقرائية فذة.

فاختراعهم لمفاهيم مثل "الفاعل"، "المفعول به"، "النعت"، "الحال"، "الضمائر"، "العطف"، "البدل"، وغيرها، يعكس عبقرية تحليلية ووعيًا إدراكيًا عميقًا بكيفية عمل اللغة. ومما يثير الإعجاب أن هذه المفاهيم النحوية الكبرى موجودة بصور مختلفة في معظم لغات العالم، ما يدل على أن **النحو العربي التقط أنماطًا ذهنية كونية**. فالضمائر مثلًا تمثل البنية العقلية التي من خلالها يتموضع المتكلم والمخاطب والغائب، وهي متطابقة تقريبًا في كل اللغات، وتشير إلى أن العقل البشري يُنظم الخطاب على نحو متسق داخليًا.

إن إدراك العرب لمعاني الإسناد والارتباط بين المسند والمسند إليه، وتصنيفهم للضمائر والمكونات النحوية، ليس إلا امتدادًا إدراكيًا لنمط التفكير العام في العقل البشري. ولهذا فإن هذا الإنجاز لا ينبغي أن يُعامل بوصفه تراثًا شكليًا، بل كإرث معرفي عالمي يمكن أن يرفد المناهج الحديثة، بل ويتفوق عليها في بعض جوانبه. فالتراكم النحوي ليس بقايا جامدة، بل ميراث قابل للتجديد والتوظيف.

تحليل علمي منهجي لنظرية العامل: بين الإنصاف والتجديد

رغم ما تتعرض له نظرية العامل في النحو العربي من انتقادات متزايدة في الدراسات اللسانية الحديثة، لا بد من التزام الإنصاف العلمي عند تحليلها، إذ تمثل هذه النظرية واحدة من أعمق وأبكر المحاولات في تاريخ الفكر البشري لتحليل العلاقات التركيبية والدلالية بين مكونات الجملة. ومن الخطأ اختزالها في مجرد هدف

"منع اللحن"، أو اعتبارها محاولة شكلية لحماية النص القرآني من التحريف، وإن كان هذا الدافع حاضراً بقوة في نشأتها التاريخية زمن الخليل وسيبويه وما بعدهما.

نظرية العامل تتأسس على رؤية عقلية منهجية دقيقة لفهم كيفية ترابط الكلمات داخل الجملة، وفق منطق سببي - تأويلي يحاكي التفكير العقلي في الربط بين المؤثر والأثر. فكل تغير في آخر الكلمة (رفعًا أو نصبًا أو جرًا أو جزمًا) لا يُفهم عند النحويين إلا بوصفه نتيجة لعامل معيّن أثر فيها، وهذا يشبه فكرة "العلّة" في الفلسفة والمنطق. وهكذا فإن النحاة لم ينظروا إلى التغيّر الصرفي بوصفه عشوائيًا أو شكليًا، بل بوصفه نظامًا منطقيًا ناتجًا عن سبب لغوي كامن. هذه الرؤية تقوم على تتبّع أثر السبب (العامل) في المُحدَث عليه (المعمول)، وهي بنية إدراكية بامتياز، لأنها تستدعي الربط بين الظاهر والمضمر، بين الشكل والدلالة.

كما أن **نظرية العامل** لا تقتصر على بيان وظائف الرفع والنصب والجر والجزم، بل تتغلغل إلى عمق التحليل التركيبي: فهي تُفكّك البنية اللغوية وفق علاقات السببية اللغوية، وتقدّم نماذج تفسيرية لكيفية انتظام عناصر الجملة في نسق منطقي. بل إن مبدأ العامل قد استُثمر لتحليل قضايا بلاغية كالحذف والتقديم والتأخير والتأكيد، مما يدل على قابليته للعمل في مستويات لغوية غير شكلية. كما إن تعدد أنواع العوامل (لفظي ومعنوي، ظاهر ومقدّر) يكشف عن إدراك النحويين للعلاقة بين **الظاهر والبنية الذهنية** للجملة، وهي مقاربة حديثة بامتياز سبقوا بها المدارس اللسانية الحديثة.

وإن غاية النحويين لم تكن شكليّة بحتة. فبالإضافة إلى صيانة القرآن، كانوا يبحثون في **منطق اللغة**، أي كيف تبني اللغة معانيها عبر العلاقات بين الكلمات. ولهذا كانت المصطلحات النحوية نفسها ناتجة عن تجريد معرفي دقيق: الفاعل ليس اسمًا مرفوعًا فقط، بل هو مركز إسناد الحدث، والمفعول به ليس اسمًا منصوبًا فحسب، بل هو مستقرّ الفعل وانتقال الطاقة إليه. وهذه الأبعاد تظهر أن النحو العربي، من خلال العامل، كان يحاول فهم العلاقة بين الفعل والفاعل والمفعول من خلال منظومة إدراكية للحدث اللغوي.

أما الزعم بأن نظرية العامل لم تُزاحمها نظريات أخرى في التراث العربي، فليس دقيقًا تمامًا. فقد ظهرت اجتهادات ونزعات تجديدية من أمثال **ابن مضاء القرطبي** الذي انتقد نظرية العامل وعدّها تعقيدًا غير ضروري، ودعا إلى التخلي عن كثير من المصطلحات والقيود الشكلية. كما حاول **عبد القاهر الجرجاني** توجيه النحو إلى البلاغة والمعنى في نظريته في النظم. بل حتى سيبويه نفسه كان يفرّق أحيانًا بين العامل من حيث التأثير النحوي، والعامل من حيث استحقاق المعنى، فيفتح الباب لتحليل سياقي دلالي ضمني.

ورغم أن المدارس اللسانية الحديثة (مثل النحو التوليدي والتوزيعي والتحويلي) لم تعتمد نظرية العامل، إلا إنها لجأت إلى ما يمكن وصفه بـ"عامل باطني" متمثل في البنية العميقة التي تؤثر في البنية السطحية، وهو مشابه لفكرة العامل المعنوي عند النحاة. كما أن إدخال السياق والدلالة في التفسير النحوي عند المعاصرين قد لا يخرج عن الإطار الذي كان يُراد له من توسيع مفهوم العامل ليشمل المعنى والمقام، وهو ما فتح الباب أمام نظرية الصفر لاحقًا لتعيد النظر في آليات الفهم والبناء النحوي.

بناءً عليه، فإن نظرية العامل ليست مجرد تراث لغوي تجاوزه الزمن، بل تمثل لبنة مركزية في فهم العرب للغة كوحدة نظامية دالة. هي نظرية سببية تأويلية، تُعبر عن بُعد منطقي معرفي عميق، يمكن البناء عليه أو إعادة صياغته في إطار نظريات معاصرة لا تلغي إنجازه بل تُعيد تأطيره، أو ترفده بأفكار جديدة. ومن الظلم للنحو العربي أن نُقابله بنظرية جديدة تلغيه من الأساس؛ بل الإنصاف هو البناء عليه، وإعادة توجيهه نحو خدمة المعنى والفهم، وهو ما تحاوله نظرية الصفر اليوم بمفردات ومداخل جديدة، لا تختلف كثيرًا في عمقها الإدراكي عما أنجزه النحويون الأوائل بوسائل زمانهم.

إمكانية تبسيط القواعد من خلال نظرية الصفر ومدى الحاجة إلى دمجها مع النحو التقليدي

السؤال عن إمكانية بناء قواعد نحوية بديلة أو مُبسطة بناء على نظرية الصفر هو تساؤل مشروع في سياق تجديد النحو وتعليمه. من المعلوم أن النحو العربي الكلاسيكي يزخر بتعقيدات مصطلحية وقيود إعرابية جعلت تعليمه عسيرًا على كثير من الطلاب. ولهذا ظهرت محاولات متعددة لتبسيطه أو إعادة صياغته، لكن تلك المحاولات غالبًا ما ظلت محصورة في تغيير طريقة العرض أو تقليص عدد القواعد دون مساس بجوهر النظرية النحوية التقليدية.

وتأتي نظرية الصفر لتقدم تصورًا مختلفًا لا يقوم على الاختزال الكمي للقواعد، بل على إعادة بنائها في ضوء السياق الكلي والمعنى التواصلي. فهي ترى أن المعنى هو الأصل، وأن القاعدة وسيلة لفهمه لا غاية مستقلة. وهذا يسمح بتقديم النحو بصورة أكثر منطقية، تجعل المتعلم يبدأ من الفهم ثم ينتقل إلى التوصيف النحوي، لا العكس. وهكذا يتحول التعليم النحوي من ممارسة شكلية إلى ممارسة وظيفية معرفية.

ومع ذلك، فإن الانفكاك الكامل عن قواعد النحو القديم قد لا يكون ممكنًا ولا مطلوبًا؛ لأن تلك القواعد تحمل خبرة لغوية تراكمية شكلت أداة لفهم النصوص لعشرات القرون. كثير من التراكيب القرآنية والشعرية لا تُفهم دون معرفة دقيقة بأنماط الإعراب والعوامل. ولهذا فإن نظرية الصفر لا تُلغي النحو التقليدي، ومن الخطأ تصور ذلك أو محاولة السير بهذا الاتجاه، بل تعيد توجيهه وتُعيد ترتيب أولوياته، أو ترفده بروافد جديدة تعين على تبسيطه ووضعه في السياق الفكري الصحيح لوظيفة علم القواعد في اللغة.

إن المسار الأمثل هو التوفيق الذكي بين النحو التقليدي ونظرية الصفر؛ بحيث يُعاد تأويل بعض القواعد القديمة وفق مقاصدها المعنوية، وتُدمج المفاهيم البلاغية والتداولية في بنيتها، لتغدو أكثر قربًا من إدراك المتعلم العصري. وهذا الدمج، إن أُحسن بناؤه، سيؤدي إلى تجاوز الإرباك نحو تطوير معرفي حقيقي، يجعل النحو أداة للفهم والتفكير، لا مجرد اختبار في رفع الفاعل ونصب المفعول به، ولا شك أن مثل هذا العمل سيكون صعبا للغاية، خصوصا إذا تصورنا كيف قام علماء النحو الجهابذة الأوائل بتقعيد قواعد لغة زخرت

بواقع لغوي شديد التعقيد، شديد التنوع، متعدد اللهجات، ومتغير السياق، للغة بالغة الثراء بالغة الاتساع، قوامها المعاني والتصوير، لذلك، فإن وضع النظرية شيء، ووضعها في التطبيق شيء آخر.

تطبيقات نظرية الصفر على فهم النص القرآني

من أبرز ما شدّ انتباه الباحثين إلى نظرية الصفر هو قدرتها التطبيقية على **إعادة قراءة النص القرآني** بطريقة مختلفة، تُظهر وجوهًا من إعجازه اللغوي. تؤكد البياتي أن **القرآن الكريم لم يُكتشف إعجازه النحوي بعدُ بسبب هيمنة نظرية العامل** في التحليل عبر العصور. أما **نظرية الصفر اللغوي فهي القادرة على كشف إعجاز القرآن الكريم نحويًا** لأنها تنطلق من المعاني والتركيب الشمولي. وتشير إلى أن تحليل القرآن بهذه الآلية يكشف أيضًا بلاغته ضمن تكامل مجموعة من العلوم (النحو والبلاغة والدلالة والصوتيات كلها). في هذا القسم سنستعرض **نماذج تطبيقية** توضح كيف يختلف فهم الآيات إذا قرئت بمنظور *الصفر* بدلًا من منظور *العامل* التقليدي.

- **دلالة زمن الفعل في القرآن: سياق لا إعراب** - من المعضلات التي يشير إليها المفسرون مسألة استخدام **صيغة الماضي للتعبير عن المستقبل** في القرآن. مثل قوله تعالى :﴿*أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ*﴾ (النحل:1) وقوله :﴿*اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ*﴾ (القمر:1)، وقوله :﴿*إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ*﴾ (الانفطار:1). ظاهريًا كل هذه الأفعال جاءت بصيغة الماضي (*أتى، انشقت، انفطرت*)، لكنها تتحدث عن **أحداث مستقبلية**. "التقليديون" أمام ذلك قد يلجأون لتأويلات لفظية أو يقولون: *"الفعل هنا" ماض لفظًا مستقبل معنى"* دون تفسير قوي، وأحيانًا قدّر بعضهم محذوفًا كما مرّ. أما البياتي فتقدّم فهمًا أعمق مستفادًا من نظريتها: *الفعل لا يُدرَس إلا في سياقه* .فصيغة "**فَعَلَ**" الماضية لها **دلالات متعددة** باختلاف السياق. في سياق مثل ﴿*أَتَى أَمْرُ اللَّهِ*﴾ هي تدل على المستقبل **لكن بأسلوب التأكيد على حتميته**. أي استُخدمت صيغة الماضي هنا **لتصوير الحدث المستقبلي وكأنه و اقع محقق** قد انتهى، تأكيدًا لوقوعه لا محالة. فالمقصد البلاغي هو *قطع الشك*، وإشعار السامع بأن الأمر آتٍ قطعًا كالماضي الذي حصل وانقضى. وكذلك الحال في ﴿*اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ*﴾، ﴿*وانْشَقَّ الْقَمَرُ*﴾ :الماضي جاء **لليقين والتوكيد** أن هذا سيحدث. جدير بالذكر هنا أن هذه المعاني التي استعملتها الدكتورة البياتي موجودة في كتب التفسير والبلاغة، فدلالة استخدام الماضي في التعبير عن المستقبل للتوكيد واليقين معروفة في البلاغة وكتب التفسير منذ القديم، وقد أشار إليها الزمخشري والرازي وغيرهما، كما قال الشاعر: هل غادر الشعراء من متردم! وكذلك لم يغادر علماء البلاغة والتفسير شيئا من هذه المعاني إلا وذكروه! لكن إسهام البياتي يتمثل في تأصيل هذا الفهم ضمن نظرية لغوية شاملة تربط المعنى بالسياق الكلي لا بالبنية الصرفية فقط، ما يمنح الظاهرة تفسيرًا إدراكيًا منهجيًا أعمق.

وبالمثل، ﴿*إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ*﴾ (ماضٍ في الشرط) أي إذا انشقت السماء حتمًا وقت القيامة. فالأسلوب القرآني بهذه الصيغة أبلغ من أن يقال مثلاً "ستنفطر السماء"؛ لأنه يحمل نبرة الحدث *المؤكد المحسوم*. **نظرية الصفر** هنا تجعلنا ننظر إلى *الصيغة* (فعل ماض) ضمن *السياق* (كلام عن يوم القيامة)، ونستنتج الدلالة: الماضي ليس على بابه الزمني دائما، بل خرج للتوكيد. وبالتالي فالتصنيف الصرفي (ماضٍ أو مضارع) يبقى تسمية شكلية، أما العبرة ففي ما *وراء الشكل* من قصد معنوي. وهذا المنهج يعمم على سائر الأفعال: فـ "**لا تخرج الفعل من سياقه**" قاعدة ذهبية لدى البياتي، بل سمِّه بصيغته (ماض أو مضارع أو أمر) وانظر ماذا أفادته هذه الصيغة من دلالة خاصة في ذلك الموضع. وهكذا **تعطي** نظرية الصفر **مرونة في فهم دلالات الأزمنة** في القرآن دون تضييق المصطلحات التقليدية. فهي تربط الحكم النحوي بمقاصد بلاغية: لماذا رُفِع هنا أو جُرّ هناك؟ لا بد من علّة معنوية لكل ظاهرة.

- **إنصاف "الفعل" المهمل** - تصف البياتي الفعل بأنه "*أكثر لفظة ظُلمت في المنهج النحوي*". إذ تعرّض في التحليل التقليدي لتهميش دلالاته لحساب الاسم. فمثلًا قسّموا الأفعال إلى ماضٍ ومضارع وأمر وفق معيار زمني ومطابقة الاسم في الإعراب (فالمضارع سمي كذلك لمشابهته الأسماء في الإعراب)، ولكن لم يُعنوا كثيرًا **بمعاني الأفعال المتنوعة في الاستعمال.** على سبيل المثال: الفعل المضارع في القرآن قد يأتي أحيانًا للدلالة على *حقيقة مستمرة* أو *استحضار صورة* أو *دعاء* أو غير ذلك، وهذه معان سياقية لا تنكشف إلا بالنظر للجملة كلها. تنبّه نظرية الصفر إلى ضرورة **رد الاعتبار للأفعال** من حيث دلالاتها السياقية. فهي تعلّمنا أن نقول: هذه الصيغة من الفعل (كفَعَلَ مثلًا) **أفادت الزمن المستقبل في هذا السياق**، أو أفادت الدعاء، أو غير ذلك. فلا نبني التفسير على مجرد اسم الفعل (ماض أو مضارع) بل على معناه ضمن الكلام. وهذا واضح في الأمثلة أعلاه. وبهذا *تواكب البياتي منهج البلاغيين* الذين نظروا مثلًا إلى المضارع في صيغة الأمر للدلالة على الدوام ﴿*يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ*﴾، أو الماضي للدلالة على الاستحضار ﴿*أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ*﴾.
- **تبسيط التحليل التركيبي** - تعتمد نظرية الصفر منهجًا في التعليم والتحليل أوضح وأبسط من تعقيدات الإعراب المدرسي. تضرب البياتي مثالًا: جملة "*حَضَرَ زيدٌ*" و "زيدٌ حضرَ". *في المنهج التقليدي تُعتبر الأولى جملة فعلية والثانية جملة اسمية مبتدؤها زيد وخبرها جملة فعلية تحتوي على ضمير مستتر فاعل يعود على زيد... إلخ. وتعددّ خطوات إعرابية كثيرة لتفسير الجملة الثانية، بينما الواقع أنها لا تختلف عن الأولى سوى في **تقديم الفاعل أو تأخيره** بحكم الأسلوب.* ***فالعلاقة الحقيقية*** *بين* حضر وزيد واحدة (فعل وفاعل) سواء تقدم الفعل أم تأخر. لذا تدعو إلى اعتماد مفهوم **المسند والمسند إليه** بدل التقسيم الجامد مبتدأ/خبر في مثل هذه التراكيب. فزيد هنا *مسند إليه* سواء جاء أول الجملة أو آخرها، وحضر هو *المسند (الفعل)*. وبذلك **تزول الكثير من التعقيدات** ويُفهم التركيب

على حقيقته: تأخير المبتدأ (زيد) في "*حضـر زيد*" كان لغرض بلاغي (إبراز الفعل أولًا لجذب الانتباه)، وتقديمه في "*زيد حضـر*" لغرض آخر (الاهتمام بالمسـند إليه أولًا). لكن العلاقة النحوية ثابتة: فعل وفاعل. هذا النوع من التحليل *يقرّب النحو لمعناه البلاغي* ويخفف عن المتعلم عناء الحفظ الاصطلاحي الذي قد يربكه (كقولهم مبتدأ مؤخر وخبر مقدم إلخ). فالمنهج الجديد يوصل الطالب لفهم "*لماذا تقدّم ولماذا تأخّر؟*" بدلاً من انشغاله "*كيف نعرب؟*" ومن هنا تشير البياتي إلى أن إصرار النحاة على الإطار الشكلي عقّد النحو وجعل الطلبة يملّون ويمجّون دروسه، بينما التركيز على المعنى والسياق يبث حياة وقصديّة في القواعد.

- **أسرار التعبير القرآني (نماذج بلاغية)** - باستخدام نظرية الصفر، قامت البياتي بإعادة قراءة كثير من الآيات لاستكشاف **نُكت البلاغة والمعاني النحوية** فيها. فوجدت - على حد تعبيرها – "*شيئًا مذهلًا*" يكمن خلف البناء النحوي للآيات. ومما أشارت إليه في مقابلاتها بعض **الأمثلة البلاغية اللطيفة:**
  - في قوله تعالى عن أهل النار: ﴿*وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا*﴾ (فاطر:37) تساءلت: لماذا استخدم القرآن *يصطرخون* (فيه حرف زيادة "الصاد" والتاء) بدلًا من كلمة أبسط كـ*يصرخون*؟ تبيّن أن صيغة *يصطرخ* أقوى في الدلالة على الصراخ الشديد المستمر. فكأن زيادة المبنى هنا أفادت زيادة المعنى (كما هو معلوم في بعض أبنية المزيد). هذه **لمحة إعجازية** في انتقاء اللفظ أدركها تحليل البياتي الذي ينظر للفظ ضمن شبكة معناه وصوته.
  - مثال آخر في تصوير نعيم أهل الجنة :﴿*وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ ۞ لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ۞ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ۞ لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً*﴾ (الغاشية:8-11). تشير البياتي إلى **جرس المقاطع المفتوحة** هنا (ناعمةٌ، راضيةٌ، عاليةٍ، لاغيةً) حيث ينتهي كل مقطع بصوت الميم المفتوح أو التاء المربوطة المفتوحة ثم تنوين. هذا الامتداد الصوتي للألف الممدودة أو النون الساكنة في كل نهاية يعطينا إحساسًا بـ**امتداد النعيم** واتساعه كما امتدت هذه الأصوات. ولو كانت الكلمات مغلقة بأصوات مقفلة (كالسكون أو نحو ذلك) ربما لم يُعطِ الإيحاء نفسه. إذًا حتى على مستوى **<u>التنغيم</u>** والصوت، يمكن للنظرية أن تبرز جوانب جمالية ومعنوية لا يلتفت إليها التحليل النحوي التقليدي. والبياتي مهتمة جدًا بهذا الجانب المسمّى **التنغيم** أو الموسيقى الداخلية للنص، وقد درسته بوصفه مكمّلًا لمعاني النحو في الكشف عن إعجازية النسق القرآني. فهي ترى أن اللغة شبكة متكاملة من أصوات ونحو وبلاغة وسياق، ويجب قراءتها بهذا التكامل لإدراك جمالها الحقيقي.
  - والتنغيم كان من أبرز نواحي الإعجاز التي أبهرت العرب فدفعت قائلهم "الوليد بن المغيرة" حين جاء النبي صلى الله عليه وسلم وقال له: اقرأ علي، فقرأ عليه: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ

وَالْإِحْسَـــانِ وَإِيتَـاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَـــاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ فقال له أعد، فأعاد، فقال الوليد: والله إن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر، وإن أســفله لمغدق، وإنه ليعلو ولا يُعلى عليه، وما يقول هذا بشـــر.[1]، حيث إنك تســتطيع إعطاء آيات القرآن لمقرئ ذي صـــوت رخيم فيجودها، وينغمها حال قراءتها، لكنك لو أعطيته نصـــا شعريا أو نثريا فإنه لن يستطيع ذلك بسهولة، وهذا من مميزات النص القرآني.

هذه مجرد أمثلة قليلة من كثير، تُبيّن أن تحليل القرآن في ظل نظرية الصـفر **يكشـف معاني أدقّ** ووجوهًا من الإعجاز البياني لم تكن تظهر بمجرد إعراب الكلمات إعرابًا جامدًا. وقد لخّصـــت البياتي هذه الحقيقة بقولها: "*نظرية الصـــفر اللغوي هي التي تظهر إعجاز القرآن الكريم نحويًا؛ لأنها تنطلق من المعاني والتركيب ومن الشـــمولية... وليســـت [قراءة القرآن] بنظرية العامل، ولا بالنظرية التوليدية التحويلية، ولا الوظيفية* ". فهي تعتبر كلًا من منهج العامل القديم وبعض مناهج اللســـانيات الغربية الحديثة قاصـــرًا عن مجاراة النص القرآني. فالأول (العامل) ركّز على ما ذكرنا، وأما **النظرية التوليدية التحويلية** (مدرســـة تشـــومســـكي) فبرأيها ركّزت على البنية العميقة والبنية السطحية والتحويل بينهما بشكل صوري لا يراعي دائمًا خصوصية المعنى في كل ســـياق، كما أنها (أي تلك النظرية الغربية) لم تُطبَّق جديًا على العربية في إطار إعجازها. وكذلك **النظرية الوظيفية** في علم اللغة ركّزت على جانب المعنى ووظيفة اللغة اجتماعيًا، لكنها – كما يبدو من نقد البياتي - لم تقدّم نظرية متكاملة تتسع للنص القرآني بكل مستوياته. من هنا ترى البياتي أن الساحة العربية كانت بحاجة لنظرية لسانية *من داخل التراث* تنطلق لفهم القرآن، فكانت نظريتها محاولة في هذا السبيل.

وتجدر الإشـارة إلى أن البياتي لا تطرح نظريتها للاسـتخدام في تفسـير القرآن فحسـب، بل أيضًـا في **تعليم اللغة العربية** ذاته. فهي تأمل أن يؤدّي اعتماد منهج الصـفر إلى تبسـيط قواعد النحو للمتعلمين، لأن الطالب سيفهم العلاقات من خلال المعنى (وهو ما يعايشـه في لغته فعليًا) بدلاً من حفظ مصـطلحات وتجريدات قد لا يسـتوعبها بسـهولة. وقد دعت بشـكل صـريح الجهات المسـؤولة عن مناهج اللغة العربية ومجامعها العلمية إلى **دراســـة نظرية الصـــفروتفعيلها** إن وجدوا فيها خيرًا، وعدم الجمود على القديم لمجرد أنه الموروث. ذلك أن اللغة كائن حي يتطور فهمنا له باستمرار. وهي في هذا السياق نفسـه أشـادت بأن العلوم الحديثة مكّنتنا اليوم من فهم كثير من الظواهر (بما فيها اللغوية) بشكل أدق مما كان متاحًا للسابقين .فمثلًا، تطور علم الصوتيات

---

[1] وقصة ذلك القول من الوليد أنه لما قرأ عليه رسول الله القرآن فكأنه رق له، فبلغ ذلك أبا جهل، فأتاه فقال: يا عم إن قومك يرون أن يجمعوا لك مالا، قال: لم؟ قال: ليعطوكه فإنك أتيت محمدا لتعرض لما قبله، قال الوليد: قد علمت قريش أني أكثرها مالا، قال أبو جهل: فقل فيه قولا يبلغ قومك أنك منكر له وأنك كاره له، قال الوليد: وماذا أقول؟ فوالله ما فيكم رجل أعلم بالأشعار مني ولا أعلم برجز ولا قصيد مني، ولا بأشعار الجن، والله ما يشـبه شـيئا من هذا، والله إن لقوله الذي يقول حلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإنه لمثمر أعلاه مغدق أسـفله، وإنه ليعلو وما يُعلى، وإنه ليحطم ما تحته، قال أبو جهل: لا يرضى عنك قومك حتى تقول فيه، قال فدعني أفكر، فلما فكر قال: هذا سحر يؤثر، يأْثُرُه عن غيره. انتهى بمعنى: ينقله عن غيره.

والنحو والدلالة ساعد على كشف جوانب كانت مخفية في تحليل النص. وبالتالي "*كلما تطورت العلوم... أوصلتنا إلى كشف إعجاز القرآن الكريم ككل*". وقد حان الوقت لاستثمار هذا التطور لصالح لغتنا وتراثنا.

خلاصة القول، قدمت نظرية الصفر أدوات فعالة لاستنطاق النص القرآني نحويًا وبلاغيًا في آن معًا. فأصبح من الممكن مثلًا فهم *لماذا* اختار القرآن تركيبًا معينًا أو زمنًا لفعل ما، وليس فقط *إعراب* هذا اللفظ أو ذاك. وبهذا انتقل التحليل من مستوى تصحيح الكلام إلى مستوى **تذوّق إعجاز الكلام** .وقد أثبتت تطبيقات البياتي أن في القرآن كنوزًا دلالية ولطائف بلاغية يمكن أن تبرز أكثر فأكثر متى ما قرأناه بهذا المنهج المتكامل.

"الصورة الفنية" عند سيد قطب وإمكانات نظرية الصفر

إن الربط بين نظرية الصفر ومناهج البلاغيين والأدباء الحديثين يثري فهمنا لكليهما. وفي هذا السياق تبرز رؤية الأديب والناقد الإسلامي المفكر الأستاذ **سيد قطب** حول *التصوير الفني في القرآن الكريم*. فسيد قطب (1906-1966م) في كتابه الشهير *"التصوير الفني في القرآن"* طرح نظرية مفادها أن البيان القرآني يمتاز بطابع **تصويري فني** فريد، يجعل المعاني **حيّة نابضة** في مخيلة القارئ. تحدث عن الآيات وكأنها **مشاهد حية**، تنتقل بالقارئ عبر الصور والأخيلة، وتثير فيه المشاعر والانفعالات وكأنه يرى الأحداث رأي العين. وقد نبّه قطب إلى أن **معظم الصور القرآنية متحركة** وليست جامدة. يقول - في ما معناه – إن "*قليلًا من صور القرآن ما يُعرض صامتًا ساكنًا لغرض فنيّ يقتضي الصمت والسكون، أما أغلب الصور ففيها حركة مضمرَة أو ظاهرة، حركة يرتفع بها نبض*" researchgate.net... فهو يرى مثلًا عند تفسير قوله تعالى :﴿*وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا*﴾ (مريم:4) أن القرآن لو قال *"اشتعل شيبُ الرأس"* أو *"اشتعل الشيبُ في الرأس"* لما كانت الصورة بنفس القوة لأن التعبير القرآني صوّر الشيب كشعلة من نار تندلع في الرأس كله دفعة واحدة، فيرى السامع المشيب وقد انتشر في كل الشعر حتى **غطّاه بالكامل** كاشتعال النار. هذه **الحركة التخييلية السريعة** في التصوير (اشتعال الرأس شيبًا) هي التي أبهرت سيد قطب، إذ جعلته *"يكتشف جمالًا خاصًا"* في القرآن. فهو جمال **ديناميكي متحرك** لا ساكن (ثابت). كذلك ضرب أمثلة بالآيات ذات الإيقاع والحركة: كمشاهد القيامة في القرآن (انفجار البحار، وبعثرة القبور، وحشرجات المحتضر... إلخ) وكلها يراها **لوحات حية** أمام القارئ.

هذه النظرة الفنية لسيد قطب تتكامل بشكل لافت مع منهج نظرية الصفر. فكما أسلفنا، البياتي تولي عناية للسياق الكلي والتنغيم والصورة العامة التي ترسمها التراكيب. ونظرية الصفر تجعل المحلل **يربط بين المستوى النحوي والمستوى البلاغي التصويري**، بدل أن يعزل أحدهما عن الآخر. فعندما نقرأ آية مثل ﴿*فَكَأَيِّن مِن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا...*﴾ إلخ (الحج:45) التي تصوّر قرى خاوية على عروشها وآبارًا معطلة وقصورًا مشيدة مهجورة، نجدها *صورة ساكنة* تهدف لهدف فني هو إبراز مأساة الماضي العريق حين يصبح خرابًا .quranpedia.net هنا السكون مقصود كجزء من التصوير. نظرية الصفر تُعيننا أن نفهم **لمَ استخدم القرآن هذه التراكيب** بالذات (مثل جملة اسمية في *فهي خاوية* للدلالة على الثبات النسبي، مقابل استخدام

الفعل في مشاهد أخرى للتحريك)، فنربط الاختيار النحوي بالجو النفسي والتصويري للمشهد. وهذا ما فعله سيد قطب بشكل أدبي مرهف، ويمكن لنظرية الصفر أن تضعه في إطار علمي منهجي. فكلاهما *ينطلق من رؤية كلية للنص* وينزل للتفاصيل؛ سيد قطب كناقد أدبي ذائب في جمال الصورة، والبياتي كعالمة لغة تبحث عن سرّ التراكيب.

وقد أشار سيد قطب نفسه إلى أهمية **النظم والمعاني** حين أثنى في كتابه على جهود **عبد القاهر الجرجاني والزمخشري** في فهم القرآن. فهو مثلاً أعجب بتحليل الجرجاني لنفس آية ﴿*واشتعل الرأس شيبًا*﴾ وأبرزها في كتابه. والجراجني كما علمنا إمام نظرية النظم التي قامت عليها نظرية الصفر. إذًا هناك خيط يربط فكر الجميع: *انسجام اللفظ بالمعنى في نسق مبدع* .سيد قطب سمّى هذا *التصوير الفني*، والجرجاني سماه *النظم*، والبياتي تجعله محور نظريتها في النحو.

إمكانات نظرية الصفر في خدمة التصوير الفني يمكن شرحها بالنقاط الآتية:

- تعتبر نظرية الصفر أن **كل جملة هي وحدة معنى متكاملة** .(Gestalt) وهذا يعني أن الصورة الفنية التي قد تمتد عبر جملة أو عدة جمل، يمكن فهمها كوحدة ذهنية كما أرادها النص. فالتحليل لا يشتت أوصال الصورة بتفكيك صناعي، بل يتتبع العلاقات كما هي. وهذا ما يحتاجه الناقد الأدبي لفهم المشهد القرآني، وهذا ما استعملناه في منهج التعامل مع مسائل الصفات بالضبط.
- تُبرز نظرية الصفر **العلاقات الخفية** بين الكلمات ودلالاتها السياقية. فمثلاً، حركة فعل أو تقديم لفظ أو حذفه قد يكون له أثر بلاغي كبير (كما في الأمثلة السابقة). بوساطة هذه النظرية، نستطيع تبرير تلك الاختيارات بعلل معنوية، مما يكشف البُعد الفني الكامن.
- تركيزها على **التنغيم والصوت** كجزء من النظم يلتقي مع ملاحظة سيد قطب للإيقاع القرآني. فقد تحدث قطب في كتابه عن *"سحر القرآن"* الكامن أيضًا في نسقه الصوتي وتناسقه النغمي. البياتي فعليًا درست التنغيم كرافد من روافد النظم القرآني، فتطرقت لأمثلة مثل إطالة الصوت للحركة والمد في آيات النعيم. هذا التكامل يجعل تحليل النص أكثر شمولًا: معنى + صورة + إيقاع.
- جانب آخر هو أن سيد قطب كان يستوحي كثيرًا من تفسيراته من **الاستجابة الوجدانية المباشرة** للنص (من واقع حسه الأدبي المُرهَف). نظرية الصفر يمكن أن *تُنسّق علميًا* بعض هذه الاستجابات. أي تجعلنا نقول: السبب في شعورنا بكذا عند قراءة هذه الآية يعود إلى البناء النحوي الفلاني الذي أدى المعنى بقوة كذا وكذا. مثلًا، قطب يقول إن *حركة الاشتعال السريعة* في الآية أو *خفوت الحركة* في آية أخرى هو مصدر التأثير؛ يمكن لنظرية الصفر أن تفسر أن استعمال المصدر أو الفعل، أو أسلوب القصر أو التقديم أو غيره هو الذي أحدث تلك الحركة أو السكون.

من هنا، إذا ربطنا بين المنهجين، سنحصل على فهم أعمق للقرآن: **منهج أدبي بلاغي** (يمثله سيد قطب) يغذي الروح والخيال، و**منهج نحوي دلالي** (تمثله البياتي) يغذي العقل والتحليل المنطقي. والقرآن يحتاج كليهما. وليس هذا غريبًا، فتاريخيًا لم يكن علم البلاغة منفصلًا عن النحو، بل كان **امتدادًا معنويًا له.** وكلما اقترب النحو من البلاغة - كما تدعو البياتي - ازداد قدرتنا على رؤية جمال "الصورة الفنية" التي تحدث عنها سيد قطب. في المحصلة، **نظرية الصفر** توفر أدوات دقيقة لفهم *كيف* ترسم الآية صورتها، مما يعزز تقديرنا *لماهية* تلك الصورة ولماذا تؤثر فينا.

وأخيرًا، ينبغي التنويه بأن سيد قطب لم يكن اللسانيّ المتخصص، بل الأديب ذا الذائقة، لذا جاءت نظريته في التصوير الفني أقرب للانطباعات المنظمة. أما البياتي فهي عالمة نحوية، لذا تأتي نظريتها صارمة منطقيًا. الجمع بين الرؤيتين يعطي توازنًا: فلا نغرق في التجريد النحوي ونفقد روح النص، ولا نكتفي بالمشاعر الجمالية ونغفل البنية المحكمة التي أنتجت هذا الجمال.

مدارس البلاغة وخدمة إعجاز القرآن عبر العصور

لم تظهر نظرية الصفر من فراغ، بل هي امتداد لمسار طويل من الجهود اللغوية والبلاغية في الحضارة الإسلامية التي سعت إلى **خدمة كتاب الله وبيان إعجازه.** فمنذ نزول القرآن ومحاولة العرب فهم سر تحدّيه، نشأت مدارس واتجاهات حاولت الإجابة: *فيما تتجلى معجزة القرآن البيانية؟* سنستعرض بإيجاز أهم تلك **المدارس البلاغية** وتأثيرها، ونرى كيف يتقاطع طرح البياتي معها.

المدرسة الجاحظية (عمرو بن بحر الجاحظ ت. 255هـ):

كان **الجاحظ** من أوائل العلماء الذين تناولوا إعجاز القرآن بصورة عقلانية أدبية في آن. في رسالته *حجج النبوة* وغيرها من مؤلفاته أشار إلى أن القرآن هو **معجزة النبي اللغوية الخالدة**، وتحدى العرب البلغاء فعجزوا عن الإتيان بمثله. ولقد فهم الجاحظ - ربما دون أن يصرّح بنظرية متكاملة - أن قوة القرآن تكمن في **بلاغة نظمه وحسن بيانه**. يقول الجاحظ: "*كان أغلب الأمور عليهم وأحسنها عندهم وأجلّها في صدورهم حسنُ البيان ونظمُ ضروب الكلام... فحين استحكمت لغتهم وشاعت البلاغة فيهم... بعثه الله عز وجل فتحدّاهم بما كانوا لا يُطاقونه*". هذه عبارة بالغة الدلالة: فهو يقرر أن "**حُسن البيان ونظم الكلام**" هما أعظم ما كان عند العرب، فجاء القرآن وتحداهم في ميدان **النظم المعجز**. وقد عُدّ الجاحظ من رواد الإعجاز *بالبلاغة والنظم* وإن لم يفصّل كثيرًا. واتفقت آراء من جاء بعده كالباقلاني والجرجاني على أن رأي الجاحظ بالضرورة هو أن إعجاز القرآن في **نظمه الفريد**. حتى قيل إنه الإمام في مذهب النظم إعجازًا. أضف إلى ذلك أن الجاحظ كان أديبًا موسوعيًا عاشقًا للغة، وتظهر في كتاباته لمحات عن إيحاءات الألفاظ وتأثير البيان في النفوس. فقد نبّه مثلاً إلى قيمة **الإيجاز والإطناب** حسب المقام، وتحدّث عن الاستعارة والكناية (ضمنيًا) .alukah.net لذا

يمكن اعتباره المؤسس المبكر لفكرة النظر إلى القرآن كنص أدبي أسمى. ومن مساهماته أيضًا (رغم كونه معتزليًا) مناقشته لنظرية **الصَّرفة** التي قال بها بعض المعتزلة (فحواها أن الله صرف العرب عن معارضة القرآن بمعجزة خارقة للعادة)، وقد رفض الجاحظ حصر الإعجاز في الصرفة وحدها مصرّحًا بأن القرآن *معجز في نفسه* وأن العرب عجزوا **ذاتيًا** عن مجاراته، فكان بذلك ممن رسّخوا مبدأ التفتيش عن السر البلاغي داخل القرآن ذاته لا في عوامل خارجة عنه. وخلاصة نظرية الإعجاز عند الجاحظ كما تُفهم من كلامه: *جمال لفظي متفرّد، ونظم معجز، وإيجاز وإحكام، وتناسب صوتي ودلالي* .uobabylon.edu.iq وكلها قضايا ستكون لاحقًا لبّ علوم البلاغة.

مدرسة عبد القاهر الجرجاني (ت. 471هـ):

يُنسب إلى الإمام **عبد القاهر الجرجاني** بلورة **نظرية النظم** بشكل علمي دقيق، جعلها نظرية متكاملة تفسّر إعجاز القرآن. في كتابيه *دلائل الإعجاز* و*أسرار البلاغة* وضع الجرجاني أسس علمي **المعاني والبيان**، وبيّن أن التركيب (النظم) هو عمدة البلاغة. لخّص الجرجاني رأيه قائلاً: "*إعجاز القرآن... مردّه إلى النظم*". وقد فصّل أن النظم يعني اختيار ترتيب الكلمات وفقا لمعانيها في النفس وعلاقاتها السياقية، وأن سر التفاضل بين كلام وآخر هو **حسن تعليق بعضه ببعض**، ومن حججه الشهيرة: تحدّى من يقول بإعجاز القرآن في مجرد ألفاظه أن يحدد أي لفظة بمفردها كانت خارقة، فالعرب تعرف كل لفظة فيه وهي شائعة في لسانهم. فلم يبقَ إلا أن يكون الإعجاز في **التأليف المبدع** لهذه الألفاظ حتى نشأت منها تراكيب لم يطرق العرب مثلها. كما بيّن أن **اللفظة في ذاتها لا تفاضل فيها**، وإنما يظهر فضلها في ملاءمتها لجاراتها وتناسق معناها معها، وضرب أمثلة عدّة محللة على ذلك (كآية ﴿*اشتعل الرأس شيبًا*﴾ وغيرها (تبرز كيف أن تقديم كلمة أو تأخيرها، أو اختيار كلمة دون مرادفها، سبّب فرقًا كبيرًا في المعنى والصورة. ويعدّ الجرجاني بذلك "الأب الروحي" لعلم البلاغة بمفهومه الخاص (علم المعاني وعلم البيان خصوصًا). ولم يقف تأثيره عند عصره، بل كل من جاء بعده كان عيالًا عليه. حتى إن الزمخشري في مقدمة تفسيره اعترف أنه أفاد كثيرًا من *نظرات عبد القاهر* ودراسات من سبقوه alukah.net، ولكنه "*زاد عليها ألوانًا جديدة تدل على تعمقه وبعد غوره... في تصوير الدلالات البلاغية*" .alukah.net أما في سياقنا هنا، فقد رأينا كيف أن **سناء البياتي** تبدأ من حيث انتهى الجرجاني: فجعلت نظريتها امتدادًا حديثًا لنظرية النظم. كما أن **سيد قطب** نوّه بعبقرية الجرجاني، وهذا يدل على أن أطروحة النظم صمدت أمام الزمن لأنها بالفعل التقطت جوهر الإعجاز. وبالفعل، دراسات الإعجاز الحديثة – لغوية وأدبية – تكاد تتفق أن سر عظمة القرآن بيانًا هو هذا التآلف العجيب بين اللفظ والمعنى والسياق. من هنا ليس غريبًا أن يسمى عبد القاهر "*واضع*

أصــول البلاغـة" . وقـد عـدّه البـاحثـون *"نـدًّا قـويًا لنظريـات اللغـويين الغـربيين"* حتى العصــر الحـديث
. uomustansiriyah.edu.iq

مدرسة الزمخشري (جار الله محمود الزمخشري ت. 538هـ)

يُشتهر **الزمخشري** بكونه صاحب التفسير البارز *"الكشاف"* الذي عُنِي فيه عناية فائقة ببلاغة القرآن وإعرابه. يمكن القول إن الزمخشـري كان أول من **طبّق نظرية النظم ومبادئ البلاغة تطبيقًا شـاملاً على كامل النص القرآني** ضمن تفسير ترتيلي. وقد قدّم *الكشاف* "صورة رائعة لتفسير يكشف عن حقائق التنزيل ودقائقه وغوامض أســراره ولطائفه، وأبرز محاســن نظمه وتأليفه ما أدهش العقول وحير الألباب" .alukah.net ولم يكن ذلك إلا ثمرة تضلعه في علوم اللغة والأدب واطلاعه الواسع على منجزات من سـبقه - لا سـيما عبد القاهر الجرجاني - ثم إضـافته *"ألوانًا جديدة"* من عنده تدل على نفاذ بصيرته .alukah.net ومما امتاز به الزمخشـري أنه **أسـس منهج التفاسـير البلاغية** ووضـع نمطًا انتهجه كثيرون بعده. حتى قيل: *"انفرد بهذا الفضــل على جميع التفاســير، لولا أنه يؤيد عقائد المعتزلة... لتحاماه أهل الســنة مع وفور بضـــاعته من البلاغة"* .alukah.net ومن أهم إســهامات الزمخشـــري في علم البلاغـة أنـه **ميّز بين علمي المعـاني والبيـان** وجعـل لكـل منهمـا مبـاحثـه ومجـالـه المستقل alukah.net- وهو تمييز منهجي أساسي استقر بعده في كتب البلاغة. كما أنه وافق الجرجاني في أن **إعجـاز القرآن من جهتين: جهـة النظم المبـدع، وجهـة المعـاني الرفيعـة** .alukah.net فهو لم يقصـر الإعجاز على الأسـلوب فقط ولا على المحتوى فقط، بل في *اجتماعهما* .وقد صـرّح: *"النظم هو أُمُّ إعجاز القرآن، والقانون الذي وقع عليه التحدي"* alukah.net، وشـــرح أن ثمرة علوم البلاغة هي **فهم هـذا الإعجـاز** .alukah.net وأن القرآن قـد وفّى بكل مقتضــيـات الحـال منطوقًـا ومفهومًـا، مع الكمال في انتقاء الألفاظ وجودة سبكها .alukah.net وبهذا خالف قول من سبقه من المعتزلة كالجرّاح والنظام في مسـألة *الصـرفة* - أي أنه رفض القول بأن الإعجاز مجرد منع إلهي للعرب عن المعارضـة - وأكد أنه **في نفس نظم القرآن وبيانه** .alukah.net ومما يُنقل عنه: "*مع مراعاة النظم، أهمُّ ما يجب على المفسّــر"* .alukah.net إذًا لدى الزمخشــري تبرز فكرة أن فهم القرآن لا يتم إلا بالتذوق البلاغي، وأن علم البلاغة إنما وضع أساسًا لخدمة هذه الغاية .alukah.net ولا عجب، فقد سُئل مرةً أبو حيان الأندلسـي - وهو ممن جاء بعده بقرون - عن تفسـير الكشـاف فقال: *"إن أردتَّ العقيدة فهو معتزلي خبيث، وإن أردتَّ التفســير فما وَلَدَتْ النســاء مثلُ الزمخشــري"!* فكافأ أهل الســنة الكشــاف رغم مخالفة صاحبه العقائدية لما وجدوا فيه من كنوز البيان.

مدارس بلاغية متأخرة ومعاصرة :

استمرت العناية ببلاغة القرآن وإعجازه عبر عصور الانحطاط وإن خفّ بريق الابتكار. من علماء البلاغة المتأخرين يبرز **السكاكي** (ت. 626هـ) الذي نظّم علوم البلاغة في مصنّفه (مفتاح العلوم) ووضع حدودًا وتعريفات تفصيلية، وإن كان قد جعل البلاغة أكثر جفافًا وترميزًا. ثم تبعه **الخطيب القزويني** (ت. 739هـ) الذي لخص وشرح وأضاف أمثلة. هذه الجهود جعلت البلاغة علمًا ناضجًا له قواعد، لكنها أيضًا جنحت به نحو الاستعراض الأكاديمي وفقد شيء من روحه الأدبية المبكرة. ومع ذلك، بقِيَ أساس المذهب البلاغي في الإعجاز كما هو: نظم ومعانٍ. في العصر الحديث (القرنين 19 و20) حصل **إحياء** للاشتغال بالإعجاز البياني مع تطور الدراسات الأدبية. فنجد **محمد عبده** يهتم بتفسير جزء عمّ بلاغيًا، و**مصطفى صادق الر افعي** (ت. 1937م) يؤلف *"إعجاز القرآن والبلاغة النبوية"* ليبرز نواحي الجمال في أسلوب القرآن والسنة، وقد أتى بنظرات أدبية ولغوية بليغة - رغم أنه تأثر ببعض النظريات الغربية في نقد الأدب - مثل حديثه عن *النغمة الموسيقية* للقرآن وتأثيرها. وجاء **الدكتورة عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ)** في كتابها *"التفسير البياني للقرآن"* (1962م وما تلاها). قدّمت بنت الشاطئ دراسة منهجية لنصوص مختارة من القرآن (كسورتي البقرة والنساء) لكشف وجوه إعجازها البياني .albasulislami.com وركّزت على *فهم مفردات القرآن وأساليبه فهمًا يعتمد على الدرس الأدبي الدقيق* islamweb.net وعلى المنهج **الاستقر ائي** لتتبع استعمال اللفظة في مواضع القرآن المختلفة قبل الحكم benkjournal.com. habous.gov.ma وامتازت بقدرتها على إبراز *"الوحدة الموضوعية والبيانية للسورة"*، وعلى تحليل ظواهر مثل الالتفات والتكرار والإيجاز والإطناب بطريقة تجمع بين القديم والحديث. ورأت بنت الشاطئ أن كثيرًا من الدارسين قبلها انشغلوا بدراسة نصوص عربية من شعر ونثر وأهملوا القرآن *"كتاب العربية الأكبر ومعجزتها البيانية الخالدة"*islamweb.net، فكان مشروعها بمثابة *تصحيح للمسار* وإعادة لربط الدراسات الأدبية بأعلى نماذج اللغة: القرآن الكريم. وقد أثنى الكثيرون على جهدها وعدّوه من *"خيرة الجهود الحديثة"* في بيان الإعجاز. إن منهج بنت الشاطئ يمثّل **المدرسة البيانية الحديثة**، التي تتلاقى مع أهداف نظرية الصفر أيضًا: فكلتاهما تحث على التعامل مع القرآن كـ**نص فريد التركيب** يجب تدبر نظمه وسياقه ومفرداته بدقة. ولعل الفارق أن البياتي ركّزت على جانب النحو العقلي والإعراب الدلالي، بينما ركّزت المدرسة البيانية على الجانب الأدبي التصويري والتذوق الجمالي للنص. والجمع بينهما – كما أسلفنا – يعطي صورة أوفى.

وبهذا نرى أنه عبر العصور، من **الجاحظ** الذي لمح إعجاز البيان والنظم، إلى **الجرجاني** الذي نظّر وأسس علميًا لذلك، إلى **الزمخشري** الذي طبّق ونشر الفن البلاغي في التفسير، إلى الجهود الحديثة التي أعادت قراءة القرآن بأدوات نقد أدبي، كلهم كانوا **يصبّون في تيار واحد:** إبراز تفرد القرآن في لغته ومنطقه وبيانه. **نظرية الصفر** جاءت امتدادًا لهذه السلسلة، بتركيزها على جانب ربما كان مظلومًا - جانب **النحو بالمعنى** - لترفعه إلى

مســـتوى خدمة الإعجاز كالبيان والبديع. فهي بذلك تكمل الصــورة إلى جانب المدارس البلاغية. ومن الطريف أن البياتي تشـير إلى أن *الســاحة العربية خلَت من النظريات اللســانية بعد نظرية العامل*، **لكن يمكن القول إنها لم تخلُ من رؤى بلاغية متجددة كما رأينا**. ومع ذلك، يبقى عملها متميزًا لأنه **يجمع بين علم النحو وعلم البلاغة** جمعًا عضــويًا ربما لم يجرؤ أحد عليه بوضــوح منذ أيام عبد القاهر. فهي تعيد لم شــمل ما افترق: فالنحو والبيان توأمان في فهم القرآن.

اللغة ومنهج التفكير: منظور نظرية الصفر والمعرفة

في كتابنا هذا: "*نظرية المعرفة ومناهج التفكير والاســتدلال*، يُنظر إلى اللغة كأحد أوعية الفكر وأدوات المعرفة. إن **نظرية الصــفر اللغوي** تضــرب مثالًا حيًا على التفاعل بين اللغة والفكر. فمن جهة، تفترض النظرية – كما رأينا – وجود بنية ذهنية مســبقة للغة في العقل، مما يعني أن **اللغة وعاء للفكر ومُترجِم له** بشــكل مباشــر. كل مرحلة من مراحل إنتاج الجملة عند الإنســان هي في الواقع مرحلة **تفكير:** تحديد المعنى العام = تفكير منطقي فيما نريد قوله، الربط بين المفاهيم = تفكير ســببي وعلاقاتي، اختيار الألفاظ = تفكير انتقائي لتجســيد المعنى. إذًا العملية اللغوية هنا عملية **اســتدلال واســتنباط متواصل** داخل الدماغ قبل أن تكون كلمات. هذا يتفق مع منظور معرفي يرى أن اللغة ليســت مجرد رموز اعتباطية، بل هي *مرآة للعقل* وتجســيد لكيفية عمل الفكر الإنســاني. فالبياتي مثلاً تصــف كيف يشــترك جميع البشــر في منظومة لغوية عقلية واحدة، وهذه فكرة قريبة من مفهوم *الفطرة اللغوية* المرتبطة بنظرية المعرفة: حيث يُعَدّ امتلاك اللغة دليلًا على تجهيز العقل البشري بأدوات إدراك عالمية.

من جهة أخرى، فإن **المنهج اللغوي والبلاغي** الذي يتبناه الباحث يؤثر كثيرًا على نوع المعارف المســتخرجة من النصــوص وعلى نمط التفكير الناتج. لقد رأينا كيف أن المنهج النحوي التقليدي (نظرية العامل) حين انصبّ على أشكال الإعراب ولم يعط السياق حقه، أدى ذلك إلى **نمط تفكير تجزيئي** يركز على الجزئيات دون رؤية الصورة الكاملة. هذا أثر سلبًا – ليس فقط على درس النحو - بل على *طريقة فهم النصوص أحيانا*. لذا، تطوير منهجية القراءة – كما تقترح البياتي – ليس ترفًا أكاديميًا، بل هو **ضرورة معرفية** لضمان فهم صحيح ومتجدد. وقد أكدت هي مرارًا أن *"اللسان العربي المبين"* الذي نزل به القرآن ينبغي أن يُدرس بجميع مستوياته: الصــوتية، والتركيبية (النحوية) وفق نظرية تكشــف الإعجاز، والدلالية، والبلاغية. فقط عند ذلك نســتطيع **اســتخراج مختلف المعارف من القرآن** التي لم يســتطع الســابقون اســتخراجها لاســتخدامهم آليةً واحدة قديمة. أي إن **تعدد المناهج وتكاملها** يثري المعرفة ويعمّقها.

بالإضــافة إلى ذلك، تسـلط نظرية الصـفر الضــوء على قضــية **الاصــطلاح** وأثره في التفكير. لقد انتقدت البياتي بعض المصطلحات النحوية الموروثة التي ترى أنها *لا تعكس حقيقة الدور المعرفي للعنصر اللغوي* .مثل مصــطلح *"مبتدأ"* الذي يوحي بأن الكلمة التي تبدأ بها الجملة دائمًا مبتدأ، وهذا أربك أذهان المتعلمين عندما

وجدوا جملًا فعلية تبدأ بفعل ثم اسم... إلخ. وكذلك مصطلح" *حرف زائد* " الذي قد يجعل الدارس يستهين بدور كلمات قرآنية معينة. هذه الاصطلاحات حين تتراكم، تكوّن في العقل الباطن إطارًا معينًا للتفكير في اللغة وربما في الأمور عامة (من قبيل: التركيز على الشكل دون الوظيفة). وعليه، فإن تنقية الاصطلاحات وابتكار أخرى أدق - كما تقترح البياتي (كالمسند والمسند إليه بدل مبتدأ وخبر في بعض المواضع مثلًا) - يمكن أن يغيّر **طريقة تفكير الأجيال** حول اللغة ونصوصها. وهذا يتقاطع مع موضوع *مناهج التفكير والاستدلال، موضوع كتابنا هذا،* فكثيرًا ما تكون العقبة في التفكير هي *حبس العقل في قوالب مصطلحية جامدة* وضعها السابقون. وعندما يتحرر العقل منها أو يعيد تعريفها، ينطلق إلى آفاق جديدة من الفهم. لقد ضربت البياتي مثالًا يدل على أهمية **إعادة تأطير الأسئلة:** فهي تقول إنها في الثمانينات طرحت أفكارًا في رسالتها للماجستير (حول نظام الجملة العربية 1983م) تُشير لوحدة النظام اللغوي بين العربية وغيرها، لكنها قوبلت بالرفض أو التجاهل لأن "*الفكر الجمعي لم يكن مستعدًا لتقبّل أفكار جديدة فكُبحت*". إذًا التراكم المعرفي أوصل المجتمع العلمي لمستوى يستطيع فيه فهم الفكرة. **المعرفة تتطور بتطور أدوات التفكير**.

وفي إطار نظرية المعرفة أيضًا، تُبرز نظرية الصفر قيمة **الاستقراء والتجريب** مقابل الجمود على القياس النظري. فهي تدعو أن" *النص هو الذي ينبئك بالقاعدة*" ، وهذا منهج استقرائي. ومن زاوية مناهج الاستدلال، منهج البياتي أقرب إلى *المنهج العلمي التجريبي*؛ إذ تجمع شواهد من القرآن (ظواهر نحوية شتى)، ثم تحاول صياغة قانون يفسّرها بشكل أبسط وأكثر شمولًا من القوانين القديمة. وقد استطاعت بذلك فعلاً تبسيط كثير من الظواهر المعقّدة (مثل إعراب *إذا* والابتداء بالنكرة وأحكام تقديم الخبر وغيرها) ضمن إطار فكري واحد (هو مراحل إنتاج المعنى). هذا شبيه بما يفعله العلماء حين يقدّمون **نظرية توحيدية** تفسر عدة ظواهر متفرقة بنسق واحد. وبالتالي فجهدها منهجيًا مُلهِم في سياق التفكير العلمي: فهو يوظّف **العقلانية** (كالتشبث بأن اللغة نظام منطقي لا اعتباطي)، و**الاستقراء** (من تتبع الأمثلة القرآنية واستنباط القواعد)، و**النقد** (كتسفيه التقديرات غير الضرورية في الإعراب)، و**البناء على السابق** (عدم نسف التراث بل تطويره)، و**التكامل بين العلوم** (دمج النحو بالبلاغة وبعلم النفس اللغوي...). كل هذه سمات لأي منهجية فكرية ناجحة.

كما أن **اللغة كوعاء للفكر** تظهر هنا في بعد آخر: إن أسلوب تعليم اللغة وتكوين المفاهيم عبرها ينعكس على ثقافة المجتمع وتفكيره العام. فمثلاً، إذا تربّى الطالب العربي على أن النحو *قواعد جامدة يجب حفظها* دون فهم علّة أو معنى، فإنه قد ينشأ على نمط تفكير يميل إلى *الحفظ والتلقين* دون بحث عن العلل وربط الأمور ببعضها. وهذا للأسف ما حدث كثيرًا بسبب المناهج القديمة. أما إذا تعلّم اللغة بمنهج يبرز "*لماذا وكيف*" وراء كل ظاهرة، فإنه يُطوّر لديه عقلية نقدية استكشافية. ولا غرو، فإذا فقد الدارس الشعور بأن اللغة **فكر ومعنى** سيعدّها شيئًا ميتًا. بينما منهج كنظرية الصفر يعيد للغة روحها، فيرى الطالب أن كل حركة إعرابية وراءها منطق دقيق لا اعتباط فيه، وكل بناء للجملة وراءه توجيه بلاغي مؤثر. فيكبر وهو يدرك أن

اللغة **أداة تفكير** وتعبير راقية، فيحسن استخدامها ويبدع فيها. وهذا يثري بدوره **التفكير الإسلامي** عمومًا، لأن العربية هي لغة القرآن والعلم في تراثنا، وكلما كانت أدوات فهمها وتحليلها أمتن، كان النتاج الفكري المستنبط منها أكثر ثراءً واتّزانًا.

وفي **سياق نظرية المعرفة الإسلامية**، كثيرًا ما يُذكر أن *الوحي امتزج بالعقل من خلال اللسان العربي المبين*. فالقرآن خاطب الناس بلغة تعتمد قواعد التفكير العقلي (من حيث ترتيب الحجة، وضرب الأمثال، وإحكام البيان بحيث لا تناقض) كما تعتمد تحريك الوجدان. وبالتالي، دراسة هذه اللغة بعمق -كما حاولنا تقديمه في شتى كتبنا التي كتبناها- هي ضرب من **دراسة طرائق المعرفة في الإسلام**. ولعل عنوان الكتاب "*نظرية المعرفة ومناهج التفكير والاستدلال*" يريد إيضاح كيف أسهمت أدوات كعلم اللغة والبلاغة في تشكيل الفكر الإسلامي عبر استنباط الأحكام الشرعية وفهم النصوص العقدية وغيرها. فنجد مثلاً علماء أصول الفقه ابتكروا قواعد لفهم النص (العام والخاص والمطلق والمقيد... إلخ) هي في صميمها قواعد **لغوية دلالية.** وكل ذلك كان ممكنًا بفضل فهمهم القوي للسان العربي. البياتي اليوم – عبر نظريتها – تضيف لبِنة في صرح منهجية فهم النص، خاصة النص القرآني، فتزوّدنا بأداة تحرص على **الشمولية والسياقية**. وهذا يتناغم مع **منهجية الاستدلال الإسلامية الأصيلة** التي كانت دائمًا سياقية وتأويلية وليست شكلانية حرفية. أي إن الأئمة كانوا ينظرون للمقاصد والمعاني ولا يقتصرون على ظواهر الألفاظ، بما يخدم السياق، فالسياق دائما كان المرجعية الأهم للفهم. نظرية الصفر بهذا المعنى تحيي فينا هذه النظرة المقاصدية: لأنها تجعل المعنى هو الأصل والإعراب تابع، فلن نقع في فخاخ فهم النص وفق قوالب جامدة، بل سنتعلم أن نراعي السياق ونوازن بين القرائن اللفظية والمعنوية قبل إصدار حكم أو استنباط فكرة. وهذه هي روح منهج التفكير السليم.

في الختام، يمكن القول إن **نظرية الصفر اللغوي** ليست مجرد مشروع في علم النحو، بل هي جزء من **حركة تجديد أوسع للفكر اللغوي والمعرفي** في آن. إنها مثال على كيف يمكن لاستيعاب تراثنا العلمي والاستنارة بعلوم العصر أن ينتجا معًا منظورًا جديدًا يثري فهمنا لكتاب الله ولغة كتابه، على أساس أصيل. فاللغة ليست بمعزل عن منظومة الفكر؛ وطالما وُصفت العربية بأنها *وعاء الحضارة الإسلامية*، فإن تنقيح هذا الوعاء وتقوية مناهجه هو شرط لنهضة فكرية شاملة. والبياتي قدّمت نموذجًا جريئًا في هذا الاتجاه، واضعةً لبنة في بناء نظرية معرفة إسلامية معاصرة **عمادها لغة القرآن** ذاتها. وكما هي سنة العلوم، قد لا تكون نظريتها خاتمة المطاف، لكنها بلا شك أثارت العقول وحفّزتها على إعادة النظر، وهذا مكسب كبير في حد ذاته. **المعرفة حلقة تُكمل أخرى**، ومتى ما خشي الباحثون الركود وراحوا يوصلون الحلقات، دبّت الحياة في الفكر والتفكير.

الإسناد والحكم العقلي في كتاب نظرية المعرفة ومناهج التفكيروالاستدلال، و أثره في البنية اللغوية

يناقش كتابنا هذا: "*نظرية المعرفة ومناهج التفكير والاستدلال*" بعمق قضية الإسناد والحكم العقلي، ويُفرّق بين أنواع الحكم: الحكم الحملي (الذي يربط المحمول بالموضوع)، والحكم الشرطي (الذي يربط بين قضيتين عبر الشرط والجزاء)، والحكم الالتزامي (الذي يربط بين المقدّم والنتيجة بالتزام عقلي ضروري). وهذه الأنواع الثلاثة من الأحكام تُجسّد بوضوح في البنية اللغوية للنصوص، بل إن كثيرًا من التراكيب العربية ما هي إلا تمثيلات لغوية مباشرة لتلك الأنماط العقلية.

فعندما نقول: "العلم نور"، فإننا نمارس حكمًا حمليًا مباشرًا، أما في ﴿إذا جاء نصر الله﴾، فنحن نمارس حكمًا شرطيًا له دلالة توقيتية ومآلية. وفي "من جدّ وجد"، يظهر الحكم الالتزامي، حيث النتيجة تتولد باللزوم عن السبب. إن هذه الأحكام ليست قواعد لغوية فحسب، بل تعبير عن آليات التفكير التي يعمل بها الذهن البشري لفهم العلاقات بين الظواهر.

ومن هنا تظهر القيمة الكبيرة لنظرية الصفر التي تسعى إلى ربط التحليل اللغوي بالمعنى العقلي الكامن وراءه، فالإسناد في الجملة ليس مجرد توزيع للأدوار الإعرابية، بل تجسيد لبنية معرفية ترتكز على الحكم والربط والتصنيف. فحين نتدبر قول الله تعالى: ﴿الرحمن على العرش استوى﴾، فإننا لا نفهم "استوى" كفعل معزول، بل ينبغي إدراكه كحكم ضمني يرتبط باسم الله "الرحمن"، ويدل على نظام حاكم للكون. إن هذا الحكم العقلي يتجاوز التحليل الإعرابي ليُصبح تأملًا في المعنى الكامل الذي ينتجه النص.

ولذلك، فإن الإضافة التي يقدمها كتاب *نظرية المعرفة* هنا هي توفير البنية النظرية التي تُسند إليها وظيفة اللغة من حيث كونها أداة تفكير، لا مجرد أداة تعبير. وبذلك، **يُمكن أن تُدمج هذه الرؤية الفلسفية العقلية مع نظرية الصفر، لتنتج نحوًا جديدًا متجذرًا في التفكيرومتصالحًا مع المعنى، قادرًا على كشف الدلالات العميقة في النصوص القرآنية والبلاغية**.

خاتمة

قدّم هذا الفصل رحلة مع **نظرية الصفراللغوي** للدكتورة سناء حميد البياتي، بين تأصيلها الفكري والتاريخي، ومقارنتها بالنحو التقليدي، ثم إسقاطاتها في فهم النص القرآني وفي التفاعل مع النظريات البلاغية القديمة والحديثة. رأينا كيف أن هذه النظرية جسّدت منهجًا شموليًا يتعامل مع اللغة كمنظومة متكاملة تربط **الشكل** بالـ**معنى**، و**اللفظ** بالـ**سياق**، و**النحو** بالـ**بلاغة**، فجاءت كنسمة تجديد في هواء دراسات العربية. كما رأينا أن ما تدعو إليه البياتي له انعكاسات أبعد مدىً على **طرائق التفكير** وتنمية **الذائقة العلمية** في التعامل مع النصوص. إنها بهذا تكمل مشروع من سبقوها (من جاحظ وجرجاني وزمخشري إلى الرافعي وقطب وبنت الشاطئ) في خدمة كتاب الله لغةً ومعنىً، ولكن بأدوات عصرها وزمانها. ولعل أهم درس تحملُه نظريتها هو ضرورة **الانطلاق من الفكرة والمعنى في بناء وتصنيف المعرفة**، سواء كانت معرفة لغوية أو شرعية أو

فكرية؛ فالتمسـك الحرفي بالظواهر قد يحجب عنا كنوزًا من الفهم العميق. وكما أن *العلامة الإعرابية ينبغي أن تقف خلف المعنى*، فكذلك يجب أن تقف **الوسائل خلف المقاصد** في كل منهج نفكّر به.

وبهذا المعنى، تصـبح اللغة – وفق رؤية البياتي – حقًا **وعاء الفكر** كما يقول العلماء، ولكن ليس وعاءً جامدًا، بل وعاء حيّاً متجدداً، كلما أعدنا النظر في تنظيمه وتأملنا نظامه، قادنا ذلك إلى **تفكير أصفى ومعرفة أعمق**. وصـدق العلامة عبد القاهر حين قال قبل قرون: "*النظم... هو الذي يعطي الكلام صفة إعجازه، وهو الذي يملك عليك عقلك وقلبك*". واليوم توضّـح لنا سـناء البياتي كيف يمكن أن نفهم هذا النظم بمنظار جديد يزيدنا ولعًا وعشـقًا للغتنا وكتاب ربنا. وما هذا إلا فصـل من فصـول "*نظرية المعرفة*" التي ما فتئت حضارتنا تسهم فيها بإبداع حينًا بعد حين - وهذه المرة من بوابة **النحو واللغة**.

المصادر:

اعتمد البحث على مقابلات وتصريحات الدكتورة سناء البياتي، وعلى ما كُتب حول نظريتها، بالإضافة إلى أبرز المراجع التراثية في الإعجاز البلاغي (كتابات الجاحظ، والجرجانيmawdoo3.com، والزمخشريalukah.net)، وعلى دراسات حديثة تناولت التصوير الفني عند سيد قطب quranpedia.net والتفسير البياني لبنت الشاطئ islamweb.net، وغيرها كما هو موثق أعلاه ضمن الهوامش.

ثائر أحمد سلامة

كاتب وباحث متخصّص في الفلسفة الإسلامية ونظرية المعرفة والشرعيات السياسية، يُعنى بتأصيل الفكر الإسلامي على منهج نقدي رصين، يجمع بين برهان العقل وهدى الوحي. يعمل على إعادة تشكيل المفاهيم الإسلامية في مواجهة الانحرافات المعاصرة، سواء في الفكر الغربي أو في تفسّخ الوعي الإسلامي. له مؤلفات تُعنى بإثبات العقيدة على أسس عقلية وعلمية، وتأصيل منهج الاستدلال، وبحث السنن الكونية والتاريخية، وبيان معجزة الشريعة.

أبرز مؤلفاته:

1. نظرية المعرفة ومناهج التفكير والاستدلال: مرجع تأسيسي في ضبط منهجية الاستدلال، يبيّن كيف نشأت المعرفة، وما الفروق بين المناهج الإسلامية واليونانية، ويفكك التصورات الحداثية حول العلم والعقل. يعيد وصل المنهج التجريبي بالعقل، ويؤصل لطريق التفكير الإسلامي المستقل.
2. نشأة الكون – دليل عقلي علمي حسي على وجود الخالق: يقدّم أدلة عقلية وعلمية على أن نشأة الكون ليست ناتجة عن مصادفة، بل عن تصميم محكم. يناقش قوانين الفيزياء، مبدأ العناية، والثوابت الكونية الدقيقة، ليبرهن على وجود خالق حكيم.
3. نشأة الحياة – معجزة الخلية ودليل وجود الخالق: رحلة تحليلية تتناول تعقيد الحياة من الخلية الأولى إلى الإنسان، يثبت بها استحالة نشأة الحياة بالصدفة. ينقض الأطروحات المادية والداروينية، ويثبت غائية التصميم الإلهي.
4. لحظة الخلق حين توقفت فيزياء الكم. (رد علمي على نظريات كون من لا شيء). (بالعربية وبالانجليزية).
5. دوران الأفلاك تصميمٌ معجز وأسرارٌ كونية مذهلة.
6. السر الكوني الأعظم كيف تحكم النسبة المثالية 2.01 بين الكواركات والفرق الدقيق 1.293 بين النيوترون والبروتون مصير الكون بأكمله. (بالعربية وبالانجليزية).
7. محاولة لتفسير أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا. (بالعربية وبالانجليزية).
8. محاولة لتفسير مراحل خلق السموات والأرض في ستة أيام. (بالعربية وبالانجليزية).
9. الزمكان، بين الفلسفة والعلم.
10. ضوابط التعامل مع مسائل صفات الله تعالى.
11. الصندوق الأسود للفكر الغربي، مأزق الدولة الحديثة: الإسلام والديمقراطية والعلمانية والليبرالية والرأسمالية: مقارنة للأسس الفكرية.
12. اَلْبَيَانُ وَٱلتِّبْيَانُ فِيْ تَفْسِيْرِ كِتَابِ ٱلرَّؤُوفِ ٱلرَّحْمَٰن.
13. التعريف بنبي الرحمة صلى الله عليه وآله وسلم.

14. مصطلح أهل السنة والجماعة في الميزان.
15. الطَّبِيْعَةُ السِّيَاسِيَّةُ لِلإِسْلامِ.
16. الخلافة والإمامة في الفكر الإسلامي.
17. البرهان المبين على أن الســـنة وحي، وأنها محفوظة، وأنها حجة وأصـــل من أصـــول الدين. (بالعربية وبالانجليزية).
18. مزج الطاقة العربية بالطاقة الاسلامية سبيل نهضة المسلمين.
19. من الذي أورى نار المعادلات والقوانين الفيزيائية وبثها في الكون الحقيقي؟
20. مفهوم الظن في القرآن الكريم وعلاقته باليقين.
21. مفاهيم في العقيدة: القول الفصل في مفهوم الإيمان شرعاً
22. مفاهيم في العقيدة: أدلة الاعتقاد،
23. الاجتهاد والتقليد: دقة الفهم للاجتهاد والتقليد مفتاح نهضة الأمة.
24. معجزة التشريع الإسلامي، خصائص ومقومات.
25. من شـــريعـة الله إلى شـــريعـة المصـــلحـة، جـذور الإســـلام الليبرالي المحـدث ودوره في إنتـاج "فقـه الأقليات".(بالعربية وبالانجليزية).
26. نقض فقه الأقليات وبيان خطورته على الأقليات المسلمة. (بالعربية وبالانجليزية).
27. إقامة الدولة الإسلامية في ظل قانون السببية والسنن الإلهية والسنن التاريخية.
28. هل حدد الرسول صلى الله عليه وسلم طريقة لإقامة الدولة الإسلامية؟
29. البحث عن الله في عالم مليء بالألم والحروب. (بالعربية وبالانجليزية).
30. دراسة استراتيجية تفكك الكيان الصهيوني: انهيار داخلي في غضون 6 سنوات (2024).
31. السقوط الحتمي للولايات المتحدة: دراسة تحليلية متكاملة (2024).
32. في دوحة وليد سيف الأدبية بالاشتراك مع الأستاذ زياد أحمد سلامة.

يمكن تحميل كتبه من موقع أرشيف: https://archive.org/details/@tasalameh